روايات
عالمية
للفتيان

الجبال البيض

تأليف : جون كريستوفر



ترجمة : نيران اسماعيل ناجي



الجبال البيض

تأليف: جون كريستوفر

ترجمة: نيران اسماعيل ناجي



الطبعة العربية الاولى ١٩٨٩

الناشر: وزارة الثقافة والاعلام.
دار ثقافة الاطفال
ص. ب ٨٠٤١

سلسلة الخيال العلمي

تصدر عن قسم النشر في دار ثقافة الاطفال
المدير العام رئيس مجلس الادارة: فاروق سلوم
سكرتير تحرير السلسلة: فاروق يوسف

الجبال البيض

تأليف: جون كريستوفر

ترجمة: نيران اسماعيل ناجي

الفصل الأول

«يوم التتويج»



كان يوجد في قريتنا خمس ساعات جدارية ، فضلاً عن ساعة الكنيسة ، وجميعها تشــير الى وقتٍ متقارب . وكــان والدي يمتلك واحدة منهنَّ ، وقد وضعها على رفّ الموقد في حجـرة الأستقبال . وكــان كلّ ليلــة ، وقبـل أن يــأوى الى

فراشه ، يأخذ مفتاحاً من مزهرية ليدور الساعة ، كان الساعاتي يأتي مرة واحدة في السنة من مدينة (ونجستر) على حصانه العجوز لينظف الساعة ويزيتها .

وبعد أن ينهي عمله ، يحتسي الشاي مع والدتي ويروي لها أخبار المدينة ، وما سمعه في القرى التي مرّ بها في أثناء رحلته . أما والدي فكان يجلس معهما ، إن لم يكن منشغلاً في الطاحونة ، ثم ينسحب عندما يبدأ الساعاتي بالقيل والقال وهو يعلقّ بأزدراء على هذه الأحاديث .

لكن عند المساء ، كنت أسمع والدتي وهي تنقل له احاديث الساعاتي ، لم يكن والدي يبدي أيَّ اهتمام لذلك ، لكنه كان يصغي .

لم تكن الساعة الجدارية هي ثروة والدي العظيمة ، بل الساعة اليدوية . كانت ساعة صغيرة تشبه قرصاً مقسماً الى درجات ، لها حزام جلدّي دائري ليتمكن المرء من ارتدائها على معصم اليد . كان والدي يحتفظ بها في أحد الأدراج المقفلة في مكتبه، وكان يرتديها في المناسبات فقط ، مثل مهرجان الحصاد أو يوم التتويج ، كان الساعاتي يفحصها كل ثلاث سنوات ، ويقف والدي بجانبه ويراقب عمله . كانت هي الساعة اليدوية الوحيدة في قريتنا وفي القرى المجاورة . وقد أخبرنا الساعاتي أن في (ونجستر) يوجد بضع منها ، لكنها ليست بجودة هذه الساعة . كنت اتساءل مع نفسي اذا كان يقول ذلك لمجرد إرضاء والدي الذي كان ، بالتأكيد ،

يبدو عليه السرور عند سماعه ذلك. كنت أؤمن بأنها حقاً ذات صناعة بارعة . كان هيكلها مصنوعاً من الفولاذ الذي هو أرقى من أي شيء آخر ممكن أن يصنع في دكان الحداد في قرية (التون) . أما داخل الساعة فكان اعجوبة لصناعته المعقّدة الماهرة . وكان مطبوع على مقدمة الساعة «مقاوم للمغناطيسية» وكنا نعتقد انه اسم البارع الذي صنعها في الزمان القديم .

زارنا الساعاتي في الاسبوع الماضي ، وسمح لي ولوالديَّ بمراقبته لبعض الوقت وهو ينظف ويزيّت الساعة اليدوية .

سحرني منظرها . وبعد رحيل الساعاتي وجدت أفكاري كلها تتجه صوب تلك الثروة التي كانت في الدرج المقفل ، كنت ، بالطبع ، ممنوعاً من لمس مكتب والدي ، وفكرة فتح درج مقفل كان شيئاً لابدّ من التفكير فيه وعلى الرغم من ذلك استمرت الفكرة في ذهني . وبعد يوم أو يومين اعترفت لنفسي أن الخوف من افتضاح امري هو السبب الوحيد الذي منعني من فتح الدرج .

يوم السبت ، وجدت نفسي وحيداً في المنزل ، كان والدي يعمل في الطاحونة ، يساعده جميع الخدم حتى «مولي» التي كانت لا تغادر المنزل أثناء النهار ، اما والدتي فكانت في زيارة للسيدة «أش» العجوز التي كانت مريضة ، فلابد أنها ستتغيب ساعة في الأقل ، كنت قد انتهيت من واجباتي المدرسية ، ولم يمنعني شيء من الخروج في ذلك الصباح

المشرق من أيام شهر أيار لألتقي بـ «جاك» ـ ابن عمي . لكن الشيء الذي كان قد ملأ ذهني ، هو فكرة وجود فرصة لألقاء نظرة على الساعة اليدوية: مع احتمال ضئيل لأن يكتشف امري .

كنت قد لاحظت أن مفتاح الدرج موجود مع ثلاثة مفاتيح اخرى في صندوق صغير بجانب سرير والدي .

حاولت فتح الدرج حتى فتح بالمفتاح الثالث . التقطت الساعة ، وحدقت النظر فيها . كانت عقاربها واقفة . وكنت اعرف كيف اديرها وذلك بوساطة زرّ صغير على جانبها . ولو أدرته مرتين فأن العقارب سوف تتوقف بعد قليل ـ ربما يقرر والدي أن يلقي نظرة عليها في ذلك اليوم . فعلت ذلك واستمعت الى الى دقات الساعة المنتظمة ، ثم نظّمت العقارب لتشير الى الوقت الصحيح . ولم يبق لي سوى ارتدائها . وارتديتها على الرغم من كبُر حزامها الجلدي .

عندما حققت ما كنت اعتقد انه قمة الطموح ، وجدت كما هو الحال دائما ـ ان هناك شيئاً أخر . أن ارتداء الساعة نصر ، لكن أن يُشاهدها احد بيدي .. كنت قد اخبرت «جاك» بأني سألقاه ذلك الصباح عند الخرائب القديمة في نهاية القرية . كان «جاك» اكبر مني بسنة واحدة تقريباً ، وكان مؤهلاً لأن يُقدم في التتويج القادم كنت اكن له اشد الاعجاب بعد والدي طبعاً . لكن اخذ الساعة خارج البيت كان اضافة فداحة لعصياني الاوامر ، ولأني تماديت في العصيان فكان

من السهل أن أتأمل هذه الفكرة . ثم قررت الخروج بها ، وعزمت على أن لا ابدّد وقتي الثمين . فتحتُ الباب الرئيسية ، ودسستُ يدي اليسرى في جيب السروال وانطلقت راكضاً في الطريق .

تقع قريتنا على مفترق طرق ، ويقع دارنا على أحد هـذه الطرق وعلى ضفة النهر (وهذا بالطبع يعطي قوة للطاحونة) وامتداد هذا الطريق كان عَبْرَ نهر صغير الذي شُيد عليه جسر خشبي صغير للمارة . انطلقت عبر الجسر بسرعة وبحزم ، ولاحظت أن مستوى الماء في النهر كان أعلى ، بسبب أمطار الربيع .

شاهدت عمتي «لوسي» تعبر الجسر من الجـانب المقابـل . حَيتني ، وحيَّيتها . واخذت الحذر بأن اسـير على الجـانب الآخر من الجسر . وعبر الجسر كان فرن الخباز ، ويعرض في مخبزه صواني من الكعكات ، وكان امر معقول أن تعتقـد عمتي اني ذاهب صوب المخبز . استمريت في طريقي ، ولم ابطىء من سيري حتى تجاوزت دور القرية كلها .

كانت الخرائب ماتزال على بعد مئة ياردة . يقع على أحد جانبي هذا الطريق مرج السيد «سبيلر» وكانت الأبقار ترعى فيه . وعلى الجانب الآخر ، كان يوجد سور وخلفه مزرعـة البطاطا . دخلت الى المزرعة عن طريق فتحة في السور ، ثم جفلت عندما سمعت صيحة من خلفي ، وأيقنت انه صوت «هنري باركر» .

كان «هنري» ابن عمي أيضاً ـ مثل «جاك» ـ اذ أن اسمي هو «ويل باركر» ، لكن «هنـري» لم يكن صديقـاً لي . لديّ بضعة أبناء اعمام وعمات في قريتنا (فسكانها قلما يسافرون ليتزوجوا من خارج قريتنا) . كان «هنري» أصغر مني بشهر واحد ولكنه كان أطول مني واكثر ضخامة ووزناً . كنا نكره بعضنا منذ الطفولة . وعندما يستلـزم الأمر النـزاع ـ كما يحدث دائماً ـ كان يتفوّق عليّ جسمانياً ، وكان عليّ أن اعتمد على السرعة وخفة الحركة لأتغلب عليه . تعلمّت من «جاك» البراعة في المصارعة والتي مكنتني في غضون العام الماضي من الأحتفاظ بقوتي العامة . وفي آخر نزاع لي مع «هنري» تمكنت من القائه على الأرض وتركه ليلتقط أنفاسه . لكن المرء يحتاج في المصارعة الى كلتا يديه . لذلـك دسست يدي اليسرى في جيبي أعمق ، لم أجب عـلى صيحتـه ، وركضت بـأتجـاه الخرائب .

كان «هنري» قريباً مني ، أقرب مما كنت أتصّور وانطلق يعـدو خلفي وهـو يصيـح ويهـدّد . عـاظمت من سرعتي وجهدي ، ثم نظرت الى الخلف لاعرف كم المسافـة بيننا ، وفجأة انزلقت قدماي في الطين . كانت طرق القرية مرصوصة بالحصى ، أما هذا الطريق ـ خارج القرية ـ فكان في حالته الأعتيادية المزرية والتي إزدادت سوءاً بسبب المطر .

عبثاً حاولت أن أقف على قدمّي ، ومن دون شعور اخرجت يدي من جيبي لأتمكن من السيطرة على الموازنة . حاولت أن

أقف لكنَّ قدميَّ استمرتا بالأنزلاق حتى سقطت ، وقبل أن أفيق من صدمة السقوط كان «هنري» خلفي يمسك بمؤخرة رأسي بيده ويدفع بوجهي نحو الطين .

كانت هذه الحركة ستسعده بعض الوقت لكنه وجد شيئاً آخر يستحق الأهتمام. لقد استعملت كلتا يديَّ ـ غريزياً ـ لأحمي نفسي من السقوط ، فشاهد الساعة في معصمي . وفي غضون لحظة ، انتزعها من معصمي ، ووقف ليتفحصها . زحفت على ركبتيّ ومددت يدي لآخذها منه ، لكنه كان ممسكاً بها وبسهولة فوق راسه بعيداً عن متناول يدي. قلت لاهثاً :ـ

ـ «اعدها لي !»

قال:

ـ «انها ليست ساعتك ، بل ساعة والدك» .

كنت قلقاً جداً ، ربما تكون الساعة قد تعطلت ، أو كُسرت اثناء سقوطي . حاولت ان اضع ساقي بين ساقيه لاسقطه على الارض ، لكنه تفادى ذلك ، وتراجع الى الوراء مهدّداً:

ـ «ابقَ مكانك ! والاسوف ارى الى أي مدى ممكن أن اقذفها» .

قلت له:

ـ «لو فعلت ذلك ، فستتلقى من والدي ضرباً بالسياط» .

عبّس وجهه البدين وقال:

ـ «وأنت أيضاً ستحصل على الضرب ، ساستعيرها منك لبعض الوقت ربما سأدعك تأخذها مساء اليوم ، أو غداً»

ـ «سيراها أحد بحوزتك .»
عبّس مرة اخرى وقال:
ـ «سوف اجازف بذلك»

بعد أن اقتنعت بأن تهديده بقذفها مجرد تهديد ، هجمت عليـه وتمكنت منه نـوعاً مـا، تمايـل وبـدأ يتصـارع ، ثم تصادمنا ، وسقطنا على الارض ، وتدحرجنا حتى سقطنا في حفرة صغيرة بجانب الطريق . استمـرينا في الصراع عـلى الرغم من وجود ماء في الحفرة ، ثم سمعنا صوتاً يهددنا . كان ذلك صوت «جاك» الذي أمرنا بالتوقف ،ونزل الى الحفرة لأبعاد واحدنا عن الاخر . ولم يكن ذلك صعباً عليه . فكان حجمـه كحجم «هنري» وقـوي أيضاً. سحبنـا «جاك» الى الطريق وعندما علم سبب النزاع أخذ الساعة من «هنري» وصرفه بضربة على رقبته .

قلت لـ «جاك» خائفاً :
ـ «هل الساعة على ما يرام؟»
تفحصها وسلمها لي قائلاً:
ـ «اعتقد ذلك ، لكنك كنت غبياً بأحضارها هنا»
ـ «أردت أن تشاهدها»
فقال بأختصار:
ـ «لا أهمية لذلك ، على أية حال ، من الأفضل أن تعيدها ، سأساعدك.»

كان «جاك» دوماً قريباً مني وقت الشدائد ليساعـدني.

وعندما كنا نسير بأتجاه القرية ، فكرت كم سيكون الأمـر غريباً عندما سأصبح وحدي في الأسبوع القادم ، سيكون موعد يوم التتويج قد حـلَّ ، ولن يعد «جـاك» فتى صغيراً بعدها .

ooo

وقف «جاك» عند الباب ليحرس، بينما وضعت الساعة في مكانها وأعـدت مفتاح الـدرج الى الصندوق الصغـير . ثم أبدلت سروالي وقميصي المبتلّين الوسخين ، وعدنا أدراجنا الى الخرائب . لا أحد في القرية يعرف تاريخ هذه الخـرائب . واظن أن أحد الأشياء التي جذبت اهتمامنا كانت كلمـات محفورة على صفيحة معدنية صدئة ومشققة وهي:

خطر

٦٫٦٠٠ فولت

لم نكن نعرف ما هي الفولتية ، لكن دلائل الخطر المثيرة كانت تعود للزمن الماضي ، وكانت توجد كتابات أخرى ، لكن الجزء الأكبر منها كان قد تآكل بسبب الصدأ .

وعلى بعد من الخرائب كان (المختلى) الذي بناه «جاك». كان مدخله على هيأة قوس يوشك أن ينهار، أما داخله فكان جافاً وفيه مكان لأيقاد النار .

كان «جاك» قد اوقد النار ، قبل خروجه للبحث عني ، وكان قد سلخَ ، ونظف ، ووضع في الشيش أرنبـاً جاهـزاً للشواء ، تتكون وجبة الغذاء في منزلنا ، يوم السبت ، من وجبة غنية

بالمأكـولات ، إلا أنها لم تمنعني من التشـوّق لأكل الأرنب المشوي والبطاطا المطهوة على جذوة النار ، ولم تمنعني حتى من مجاملة والدتي وتناول ما أعدته لنا . وفي الحقيقة ، كنت دائماً اتمتع بشهية جيدة .

كنا، انا و «جاك» نراقب ونشم الأرنب المشوي بسكون ، كنا دوماً على اتفاق وتفاهم من دون الحاجة للتحدث ، على الرغم من اني كثير الثرثرة . وأعرف أن اكثر المشاكل بيني وبين «هنري» هي بسبب لساني .

أما «جاك» فلم يكن ثرثاراً ، لكن ، ولدهشتي كان هـذه المرة هو الذي يكسر حاجز الصمت ، وكان حديثه غير مترابط في البداية ، كله ثرثرة حول امور حدثت في القرية ، وانتابني شعورٌ انه يحاول الوصول إلى موضوع آخر ، موضوع اكثر اهمية من الثرثرة .

توقف عن التحدث ، وحدّق على الذبيحة المحمّصة لحظات ثم قال:

ـ «سيصبح هذا المكان ملكاً لك بعد التتويج»

كان من الصعب عليّ أن أجد ما اقوله ، اذ لو كنت قد فكرت بالمختلى لتوقعت منه أن يتركه لي . لكنني لم افكر بذلك ، فالمرء لا يفكر كثيراً حول الأمور التي تتعلق بالتتويج أو بالمتوجين ، وبالطبع لا يجب التحدث عنهم .

لكن ، أن يتحدث «جاك» عن هذا الموضوع ـ من دون الناس كان امراً مفاجئاً . وما قاله بعد ذلك كان اكثر مفاجأة

ـ «اكاد اتمنى أن لا يتم تتويجي على ما يرام ، فأنـا لستُ متأكدا من عدم رغبتي لأن اكون متشرداً» .

لكل قرية بضعة من المتشرّدين ، وكان يوجد اربعة منهم في قريتنا ـ على ما اذكر ـ لكن العدد في تغيّر مستمر . يغادر بعض منهم القرية ، ويأتي بعض آخر ليحل محلهم ، وهكذا الحال . كانوا قليلاً ما يعملون في مهنة ما ، لكن سواء اشتغلوا أم لا فأن القرية بأجمعها مسؤولة عن إعالتهم . كان المتشردون يقيمون في دار تسمى بـ «دار المتشردين» وتقع الدار على زاوية عند تقاطع الطريقين وكانت الدار اكبر من دور القرية ـ بضمنها منزلنا . كانت الدار تتسع لاثنى عشر متشرداً ، ومرت أوقات ضم فيه هذا العدد . لم يكن الزاد الذي يزود للمتشردين مترفاً لكنه مناسب ، وكان يوجد خادم ليعتني بالدار ، وكان يُرسل للدار خدم آخرون للمساعدة عندما يمتلىء بالمتشردين .

الأمر الذي كان شائعاً ، على الـرغم من عدم منـاقشته علنـاً ، هـو أن المتشردين هم انـاس فشلت معهم عمليـة التتويج . كانوا يرتدون التيجان كالناس الطبيعيين ، لكنها لم تكن تعمل على نحو جيد . إن أعراض فشل التتويج تظهر منذ اليومين الاولين بعد التتويج ، فالشخص الذي تفشـل معه هذه العملية يبدو عليه الأكتئاب الذي يتزايد بمـرور الأيام ليتحول الى حمىّ الدماغ . في هذه المرحلة يعاني المتوّج من آلام شديدة . ولحسن الحظ ، لا تدوم هذه المرحلة طويلاً .

ولحسن الحظ أيضاً انها لا تحدث دائماً ، فأغلبية عمليات التتويج كانت ناجحة تماماً ، واعتقد أن نسبة المتشردين هي واحد الى عشرين .

عندما يشفى المتشرد أو المتشردة ، فأنه يبدأ بالتجـوال والترحال ، وذلك ربما لأنهم يجدون انفسهم خارج المجتمع الطبيعي ، او ربما لأن الحمّى قد خلفت وراءها فيهم شعوراً بعدم الأستقرار ـ لا أعرف تماماً ـ لكنهم يبدأون بالترحال والتجوال على الأرض ، يتوقفون يوماً هنـا وشهراً هنـاك ، ويبقون على ترحال دائم ، أما ادمغتهم فأنها حتماً مصابة ، فلا يستطيع أحد منهم أن يستقر على سلسلة أفكار معينة ولوقت طويـل ، والكثير منهم لـديهم خيالاتهم الخـاصة ، ويقومون بأفعال غريبة .

كانوا محطّ سخرية وعناية الآخرين في الوقت نفسه. كان الناس قليلاً ما يتحدثون بشأن هذا الموضوع ، كما هو الحال بشأن موضوع المتّوجين ، أما الأطفال فكانوا ينظرون اليهم بشك ، ويتحاشـونهم . من جهة المتشردين كـانت الكآبـة والسوداوية تبدو عليهم ، حتى انهم نادراً ما يتحدثون فيما بينهم ، لذلك كانت صدمة لي أن اسمع «جاك» وهو يتمنى ـ نوعاً ما ـ أن يصبح متشرداً . لم اكن اعرف بماذا اجيبه ، الا انه لم يبد عليه انه بأنتظار ردّ مني إذ قال:

ـ «هل فكّرت يوماً كيف كانت الحياة عندما كانت هناك أشياء تُصنَع مثل الساعة ؟»

كنت قد فكرت بهذا الموضوع بين آونة واخرى ، وهـذا الموضوع كان أيضاً موضوعاً بعيداً عن النقاش . لم يحدث أن تحدث «جاك» بهذه الطريقة فقلت له :

ـ «تقصد الحياة قبل مجيء ذوو القوائم الثلاث ؟»

ـ «نعم» .

ـ «اعرف ان الحياة كانت تدعى بـ «العصر الأسود» حيث تضخم السكان وشح الطعام ، فعانى الناس من المجاعـة وتقاتلوا فيمـا بينهم ، وكانت انـواع كثيرة من الأمـراض منتشرة و.....»

قاطعني «جاك» قائلاً :

ـ «لكن كانت هناك اشياء كثيرة تصنّع ، مثل الساعات ، من قبل البشر وليس من قبل ذوي القوائم الثلاث .»

ـ «نحن لا نعرف شيئاً عن هذا الموضوع»

ثم سألني :

ـ «الا تتذكر قبل أربع سنوات ، عندما ذهبت للأقامة مـع خالتي «ماتيلدا ؟»

تذكرت ذلك ، كانت «ماتيلدا» خالته هو، وقد تزوجت من أجنبي وعاد جاك يقول :

ـ «انهـا تعيش في «ونجستر»، وقـد خرجت يـومـاً لأتمشى ووصلت الى البحر ، وصلت الى خرائب مدينة لابد انها كانت اكبر من «ونجستر» بعشرين مرة» .

قلت له :

ـ «تلك واحدة من المدن التي حدثت بهـا كل جـرائم القتل والأمراض»

ـ «هذا ما قد أخبرنا به . لكني رأيت شيئاً آخر هناك وجدت هيكل سفينة وكان متشققاً بسبب الصدأ ، وحجمه اكبر من القرية بكثير.»

لزمت الصمت وحاولت تصّورها لأراها في مخيلتي كما رآها هو في الحقيقة ، لكن ذهني لم يتقبل تلك الصورة . وعاد جاك يقول:

ـ «السفينة شيدّها البشر قبل مجيء ذّوي القوائم الثلاث»

وجدت نفسي ، مرة اخرى ، لا أعرف ما اقوله له ، وبعد مدة صمت قلت بوهن:

ـ «الناس سعداء الآن»

بعد ذلك قال:

ـ «نعم ، اعتقد انك على صواب»

○○○

كان الجولطيفاً ، واستمر حتى يوم التتويج . كان سكان القرية يعملون في حقولهم طوال النهار ، يقطعون الحشائش ليجففوها كعلف للحيـوانات . وبسبب وفـرة الامطار ذلـك العام ، انتصبت الحشائش عالياً بخصـوبة ووفـرة مبشرة بحصاد جيّد ، ووفـرة العلف في الشتاء المقبـل . كان يـوم التتويج عطلة رسمية . ذهبنا الى الكنيسة ، بعـد الفطور ، وكان وعظ القس عن الحقوق والواجبات الملقاة على مرحلة

الرجولة التي كان «جاك» سيدخلها. وقف «جاك» وحيداً يرتدي رداءاً أبيض روماني الطراز، وطويلاً، ويُشدّ بحزام على الخصر وكان هذا الزي خاصاً بيوم التتويج. نظرت اليه، وكنت تواّقاً الى أن اعلم ماذا كان شعوره، لكن مهما كانت مشاعره فأنه لم يظهرها، ولا حتى بعد أن انتهت المراسيم ووقفنا في الشارع امام الكنيسة بأنتظار المركبة الثلاثية القوائم. كانت أجراس الكنيسة تجلجل والسكون يخيم على الناس. لم يتحدّث أحد، ولم يهمس أو يبتسم أحد، كنا نعلم ان هذه اللحظات كانت عظيمة لمن كان قد تُوِّج من قبل. حتى المتشرّدين جاءوا وانظموا الى الجمهور الساكن. كان الوقت يمضي ببطء بالنسبة للأطفال الذين سيتوّجون، وخاصة بالنسبة لـ «جاك» الذي كان يقف في منتصف الشارع.

شعرت ولأول مرة، برعشة من الخوف عندما أيقنت اني سأقف مكانه في العام القادم. بالطبع، لن اكون وحدي، و «هنري» سيقدم أيضاً للتتويج. لكن حتى هذه الفكرة لا عزاء فيها.

واخيراً، سمعنا دويّاً متقطعاً، وبعيداً، وبدأ الصوت بالأقتراب اكثر فأكثر. وفجأة تمكنا من رؤية المركبة تسير من فوق الدور الجنوبية. كانت المركبة على شكل نصف كرة معدنية تتأرجح في الجو فوق ثلاث أرجل ذات مفاصل. وكل واحدة منها كانت اعلى من الكنيسة بكثير. وصل ظل المركبة

قبلها ، وخيم علينا الظل عندما توقفت المركبة .

انتظـرنا بصبـر ، وكنت هذه المـرة ارتجف بجد ، ولم استطعْ السيطرة على الارتجاف الذي سرى بجسدي .

تقدم السيد «جوفري» رئيس الأقليم ، وانحنى بأتجاه المركبة . كان رجلاً عجوزاً لا يستطيع الأنحناء بسهولة . ثم هبطت من المركبة ذراع ملمعّة بهدوء والتفتّ نهايتها حـول خصر «جاك» ورفعته الى الأعلى ، الى فتحة في المركبة وكأنها فم عظيم ، ثم ابتلعته .

○○○

كان المهرجان والألعاب تقام في المساء ، وقبل المهرجان يتجول الناس في القرية ، ويزور بعضهم الآخر ، ويتنزه الشباب من كلا الجنسين في الحقول .

أقيم المهرجان في المساء ، ونصبت موائد في الطرق تنبعث منها رائحة اللحم المشوي والجعة وأنواع اخرى من الشراب فضلاً عن رائحة الكعكات . وعلقت مصابيح خارج البيوت لتنير ، عند الغسق ، وتشع وكأنها زهور صفراء. وقبل أن يبدأ المهرجان عاد «جاك» .

سمعنا أولاً الدوي ، ولزمنا الصمت ، ثم سمعنا خطى الأقدام العملاقة وهي تهز الأرض ، توقفت المركبة وفتح الفم العظيم وهبط الذراع ليضع «جاك» في المكان المخصص له ـ على يمين السيد «جوفري». كنت اقف مع الأطفال بعيداً عن «جاك» لكني كنت أراه بوضـوح . كان شـاحباً ولم تتغـير

قسمات وجهه ، التغير الوحيد الذي حصل هو حلق شعر رأسه تماماً وبدا رأسه أبيض، ووضع ذوو القوائم الثلاث على رأسه تاجاً معيناً داكن اللون ذا زخرفة، وبدا كأنه نسيج عنكبوت. سينمو شعره مرة اخرى حول التاج المعدني ، وفي غضون اشهر معدودة سوف لا يظهر التاج للعيان ، اذ كان شعر «جاك» أسود وكثيفاً وسيبقى التاج على رأسه طول العمر .

كانت تلك اللحظات هي لحظات فرح وابتهاج ، إذ امسى «جاك» رجلاً ، وغداً سوف يعمل في الحقول كالرجال الآخرين ويتقاضى أجراً مثلهم . احضروا له أفضل قطعة من اللحم ، وكأساً من الشراب ، وشرب مع السيد «جوفري» على نخب صحة «جاك». نسيت مخاوفي وحسدته ، وفكرت كيف سأكون مكانه في العام المقبل ، وأنا رجلٌ .

○○○

لم ارَ «جاك» في اليوم التالي ، لكننا التقينا في اليوم الذي بعده . بعد أن انهيت واجباتي المدرسية اتجهت الى المختلى . وفي الطريق شاهدت «جاك» مع بضعة رجال وهم عائدين من الحقول . ناديته فأبتسم لي ، وبعد دقائق من التردد جاء بأتجاهي ، ووقفنا وجهاً لوجه في المكان نفسه الذي تنازعت فيه مع «هنري» قبل اسبوع ، لكن الأمور كانت مختلفة عن السابق . سألته :

- «كيف صحتك؟»

لم يكن سؤالي عن صحته مجرد سؤال مهذب، إذ لو كان التتويج سيفشل فأنــه لابد كـان قد بـدأ يعاني من الآلام والضيق التي تؤدي الى حالة المتشرّد فقال:

- «بخير ، يا «ويل» .»

ترددت قليلاً ثم سألته:

- «ماذا حدث في التتويج؟»

هزّ «جاك» رأسه وقال:

- «أنت تعلم أن التحدث بشأن هذا الموضوع ممنوع ، لكني استطيع أن إعدك بأنك لن تتأذى»

- «لكن لـماذا يـأخـذ ذوو القـوائم الثـلاث النـاس بعيـداً ويتوّجونهم؟ بأي حق؟»

- «يفعلون ذلك لمصلحتك»

- «لكني لا أجد ضرورة للتتويج اذا سأبقى كما أنا»

قال جاك مبتسماً:

- «أنت لا تفهم شيئاً عن هذا الموضوع الآن ، ستفهم ذلك عندما تمرّ بالتجربة . انها... لا استطيع وصفها»

قلت له:

- «كنت افكر، يا «جاك» بما قلته لي عن الأشياء الرائعة التي صنعها الأنسان قبل مجيء ذوو القوائم الثلاث

- «هذا كان هُراء» قال ذلك واستدار وسار بأتجاه القرية . راقبته بعض الوقت ، عندئذ شعرت بوحدة قاسية، فسلكت طريقي الى المختلى .

الفصل الثاني

«اسمي اوزيماتر اباسس»



لم أدرك كم كنت اعتمد على رفقة «جاك» الا بعد تتويجه وابتعاده عني . إبعدتني صداقته عن الصبية الأخرين الذين هم في سنّي ، في قريتنا وفي القرى المجاورة . كنت اعتقد انه من السهولة تجاوز هذه الحالة . عرض علي

«جـوبايث» ابن النجـار صداقتـه ، ومن جانبي ، وبسبب المزاج الذي كنت فيه ، فضلت ان ابقى وحدي ، كنت أذهب الى المختلى واجلس هناك ساعات طويلة افكر بجميع الأمور . جـاء (هنري) مـرة ، وتلفظ ببعض التعليقات الســاخرة ، فتنازعنا .كان غضبي من الشدة بحيث تمكنت من الأنتصار عليه ، فلم يقف في طريقي بعدها .

كنت اقـابل «جـاك» بين آونــه وأخرى ، نتبـادل بعض الكلمات التي لا معنى لها كان سلوكه تجاهي لطيفاً وفاتراً يحمل دلائل صداقة معلقّة ،وإيحاءاً بأنه ينتظر على جـانب آخر لنهر سأعبره العام المقبل ، وعندها ستسير الأمور كما كانت. لم يرحني هذا الأنطباع فالشخص الذي افتقده هو «جاك» كما كان سابقاً ، لكن يبدو انه رحل من غير عودة . كانت فكرة التتـويج والمستقبـل ترعبني وعبثـاً حاولت أن اطردها من ذهني .

في هذا الوضع النفسي من الشك ، والخوف ، والأكتئاب ، وطـول التفكير وجـدت نفسي مهتماً بـالمتشردين . تذكـرت تعليقات «جاك» وتساءلت مع نفسي عما كان سيصبح عليه لو لم تنجـح عملية التتـويج ، تفحّصت المتشرّدين. الـذين في قريتنا ، وفكرت فيهم ، وهم في يوم من الأيام كانوا مثل «جاك» ومثــلي ، يعيشون في قـراهم متعافـين ، وسليمي التفكير ، وسعداء ، ملؤهم الأمل والمشاريع المستقبلية . كنت الأبن الوحيد لوالدي ، وكان ينتظرمني ان آخذ مسؤولية الطاحونة

في يوم من الأيام . لكن اذا فشلت عملية التتويج ..

وصل الى القرية اثنان من المتشردين ، وثالث كان قد وصل قبل بضعة اسابيع . كان رجلاً في سن والدي ، لكنه كان أشعث اللحية ، وأشيب الشعر ، وتظهر خطوط من التاج من بين شعره غير الكث ، قضى وقته بجمع الحجارة من المزارع قرب القرية ، وبنى بها شيئاً اشبه بالصريح خارج دار المتشردين. كان كل يوم يجمع زهاء عشرين حجارة، كل واحدة بحجم نصف طابوقة . كان من المستحيل أن أدرك لمَ يختار حجارة من دون اخرى ، او لأي شيء يرمز الصريح . كان قليل الكلام ، واذا تكلم فكان يستخدم كلمات كما لو انه طفل يتعلّم الكلام .

اما الاثنان الآخران فكانا اصغر منه كثيراً ، كان احدهما قد مضت سنة واحدة على تتويجه ، وكثير الكلام، لكن لم نفهم معنى من كلامه . وكان الثالث اكبر من الثاني بسنوات قليلة ، يتحدث بطريقة مفهومة . لكن ليس دائماً . كان يبدو غارقاً في بحر من الاحزان وكان يتمدّد في الشارع ، قرب دار المتشّردين طوال النهار ويحدّق في السماء .

بقي في المدينة بعد رحيل الآخرين ، اذ رحل الصغير في الصباح ، ورحل باني الصريح في مساء اليوم نفسه. بقيت اكوام الحجارة كما هي ، غير مكتملة . ومن دون معنى . القيت نظرة على هذه الأكوام في المساء ، وتساءلت عما سأفعله ، أنا ، بعد خمسة وعشرين عاماً . هل سأطحن ذرة

في الطاحونة؟

ربما ، أو ربما سأتجول في الأرياف ، واعيش على الصدقة ، وافعل اشياءاً لا معنى لها . ثم أيقنت اني بدأت افهم ما كان يعنيه «جاك» عندما تحدثنا في المختلى .

ooo

وصل المتشرد الجديد في اليوم التالي ، رأيته عندما كنت في طريقي الى المختلى ، كان آتياً من الطريق القادم من الغرب خمنت انه في الثلاثين من عمره . كان ذا بنية قوية ، وشعر ولحية حمراء ، كان يحمل عصا من خشب الدردار ويحمل حقيبة صغيرة على ظهره . كان يغني بتناسق وانسجـام ، وعندما رآني توقف عن الغناء وقال:

ـ «ايها الصبي ! ما اسم هذا المكان ؟»

ـ «ورتون»

فقال:

ـ «ورتون ، اوه ، انها اجمل قرية في هذا السهل، هنا لا يوجد كَرْب ولا ألم. هل تعرفني ايها الصبي؟»

قلت هازاً رأسي بالنفي:

ـ «كلا» .

ـ «أنا مَلِكُ هذه الأرض . وكانت زوجتي ملكة البلاد الممطرة ، تركتها تبكي ، اسمي «اوزيماندایاس» حاول أن تلقي نظرة على أعمالي.»

كان حديثـه هراء . لكن في الأقـل كان يتحـدث بكلمات

مفهومة ، وكـان حديثـه اقرب الى الشعـر . تذكـرت اسم «اوزيماند اياس» كنت قد قرأته في قصيـدة من أحد الكتب الأثني عشر الموجودة على الرف في حجرة الأستقبال . سار بأتجاه القرية وسرت خلفه . بعد مدة نظر الى الوراء وقال:

ـ «هل تتبعني أيها الصبي؟ هل تريد أن تصبح وصيفاً لي؟ واحسرتـاه ، الذئب في حفـرته ، والعصـافير تلتجيء تحت أشجار البلوط المورقة ، أما ابن الأنسان فلا مكان له ليتمدّد ، لا عمل لك إذن؟»

ـ «لا شيء على التعيٰن»

ـ «حقاً ، لا شيء مهم ، لكن كيف يمكن للأنسان أن يجد «لا شيء؟ أين يبحث عنها؟ هل استطيع أن اجد لا شيء؟ سأصبح ملكاً ، بل امبراطوراً . من يسكن في الدار هذه الأيام»

أيقنت انه يتحدث عن دار المتشردين فقلت:

ـ «يوجد واحد فقط ، لا أعرف ما اسمه»

ـ «ليكن اسمه «النجمة» ، وما هو اسمك؟»

ـ«ويل باركر» .

ـ «ويل» أسم جيد ، ما هي صنعة والدك ؟ إن هندامك يَدل على انك لست ابن كادح»

ـ «يمتلك أبي مطحنة»

ـ «أنا لا اهتم بأحد ، كلا ، ليس أنا ، ولا أحد يعتني بي ، هل لك اصدقاء كثيرون يا «ويل» ؟

ـ «كلا ، ليس كثيراً .»

ـ «جواب جيد ، فالذي يدّعي كثرة الأصدقاء ، يعلن أن لا صديقَ له»

ـ «في الواقع ، ليس عندي صديق ، كان لي صديق لكنه قد تُزَوّج قبل شهر»

توقف عن السيروتوقفت معه . كنا في مدخل القرية ، أمام مسكن الأرملة «انكولد» نظر اليّ المتشرد وقال:

ـ من دون عمل، ومن دون صديق ، صبي يتحدث ويسير مع المتشردين . كم عمرك يا «ويل»؟»

ـ «ثلاثة عشر عاماً»

ـ «أنت صغير على ذلـك ، ستحصل عـلى التاج في الصيف القادم ، أليس كذلك ؟»

ـ «نعم» .

رأيت الأرملة «انكولد» تراقبنا من خلف الستائر ، والقى المتشرد نظرة خاطفة في ذلك الأتجاه . وفجأة بدأ يتراقص في الشارع ويغني بصوت أجش . وطوال الطريق كان حديثه هُـراء لا معنى لـه، وكنت سعيـداً لأفتـرق عنـه عنـد دار المتشردين .

○○○

لاحظ الناس انشغالي بالمتشردين ، وفي مساء ذلك اليوم وبّخني والدي على ذلك . كان والدي أحياناً قاسياً لكن كان في أغلب الأحيان عطوفاً . وكان من الصعب عليه ان يتغاضى عن الامور التي يعتقد انها خطأ وتهوّر. فلم يجد تبريراً لفتى مثلي

يحوم حول دار المتشرّدين . وحدثني والدي أن المرء يشعر بالأسف لهم . ومن الواجبات الأنسانية أن يزوّدهم بالطعام والمأوى فقط . واخبرني ان أحداً قد رآني ذلك اليوم مع اجدد المتشردين في القرية والذي أتضح أنّه اكثر جنوناً من بقية المتشّردين، وانــه لمن السخف أن أتجول معــه فهذا يعطي فرصة لألسنة السوء بالتحدث . وتمنى أن لا يسمــع عني تقارير اخرى عن هذا الموضوع ، ومنعني من الذهاب الى دار المتشردين مرة اخرى .

شعرت أن هناك أمراً آخر يقلق والدي ، قد يكون والدي على استعداد لان يسمع اقاويل الناس عما يحدث في المدينة او القرى المجاورة ، لكن أن يصغي لأحاديث القيل والقال للتشنيع الامر الذي يكن له الأزدراء ، كــان امراً غــريباً ، أيقنت انه يخاف شيئاً آخر اكثر سوءاً . فكان لوالــدي أخ تحول الى متشرد ، لم نتطرق لهذا الموضوع في منزلنــا لكن «جاك» كان قد أخبرني بذلك . وقال بعض من الناس أن هذا النوع من الضعف وراثي في العائلة ، لذلك قد يظن والدي أن اهتمامي بالمتشردين نذير ســوء بالنسبــة للتويــج في العام المقبل . لم يكن تفكيراً منطقياً لكن لابد أن يكون للمرء بعض الأخطاء .

قررت أن أفعل ما أمرني به والدي ، خاصة بعد خجلي من الطريقة التي تصرّف بها المتشرد الجديد بحضور الجميع . ابتعدت عنهم مدة يومين ، رأيت في غضونها «اوزيماند اياس»

مرتين وهو يتحدث مع نفسه ويتصرف كمهـرج . وفي اليوم الثالث ذهبت الى المدرسة لا عن الطريق الخلفي بمحاذات النهـر ، بـل عن الطـريق الامـامي عبْـرَ الكنيسـة ودار المتشردين . عند عودتي من المدرسة ، عند انتصاف النهار ، رأيت «اوزيماندایاس» قادماً من الأتجاه المعاكس، أسرعت خطواتي فالتقينا عند تقاطع الطريق. قال:

ـ «اهلاً ، يا «ويل» لم أرك في الأيام الماضية ، ما الذي أبعدك؟ أهي نزلة برد؟»

كان فيه شيء ما قد جذب اهتمامي وشدّني له ، وكان هذا هو السبب الذي أحضرني هناك على أمل لقياه مرة اخرى . لم يكن هناك احد قريب منا ، اذ كان بضعة اطفال بعيدين في الطريق ، وبعض من الناس الذين يعرفونني على الجـانب الآخر من التقاطع . قلت له وأنا متهيأ للمضي في طريقي

ـ «كنت منشغلاً بأمور معينة»

أمسك بذراعي وقال:

ـ «المرء الذي لا أصدقاء له ، يمكنه أن يرحل أينما يشاء ، ويتوقف وقتما يشاء:»

أجبته:

ـ «يجب أن أعود الى البيت فهم ينتظرونني على الغداء»

أبعدت نظري عنه ، وبعد برهة أعتق ذراعي وقال:

ـ «لن أؤخرك على الرغم من أن الأنسان لا يعيش على الخبز فقط ، لكنه يجب أن يحصل عليه اولاً»

كان حديثه ذا نبرة مرح ، وأدركت شيئاً آخر من كلامه ـ خيبة الأمل ـ سرت في طريقي ـ وبعد بضع خطوات توقفت ونظرت اليه ، كانت عيناه تحدقان بي ، قلت له بصوت خافت:

ـ «هل تذهب الى الحقول؟»

أجابني:

ـ «عندما تشرق الشمس»

فقلت له:

ـ «قرب المكان الذي التقينا فيه ، توجد خرائب قديمة ، والى يمينها يوجد مختلى ملك لي ، له مدخل مقّوس مكسور والى جانبه صخرة حمراء تشبه كرسياً»

سألني:

ـ« أتقضي معظم أوقاتك هناك؟»

ـ «اذهب هناك كل يوم بعد انتهاء الدوام»

قال هازاً رأسه:

ـ«افعل ذلك»

نظر الى السماء ، ورفع يديه فوق رأسه ، وبدأ يطلق كلمات لا معنى لها ، تركته وهرعت الى المنزل .

○○○

ذهبت الى المختلى بعد انتهاء الدوام ، كانت مشاعري مزيجاً من التشّوق وعدم الراحة . تمنى والدي أن لا يسمع اخباراً عن اختلاطي بالمتشردين ، وقد منعني من الذهاب الى دار المتشردين .

أطعت القسم الثاني من التحذيـر وها أنـا آخذ خطـوة في عصيان القسم الأول . كنت على يقين انه سيعدّ تصرفي هذا عصياناً متعمداً . ان فرصة التحدث الى رجـل ذي حديث مزيج من المعقول والهراء ـ والهراء هو المتغلب على حديثه ـ مجازفة لا تستحق عصيان الأوامر .

عندما تذكرت عينيه الزرقاوين تحت شعره الأحمر ، لم استطع منع نفسي من الشعور بأن هناك شيئاً معيناً في ذلك الرجل يجعله يستحق المجازفة والعصيان. تفحصت الطريق جيداً ، وناديته عندما وصلت الى المختلى ،لكني لم أجد أحداً ولا حتى بعد مدة من الأنتظار . حسبت انه لن يأتي ، ربما كـان ذكاؤه متـدهوراً فلم يـدرك الدعـوى ، أو ربمـا نسي الموضوع بأكمله . ثم سمعت صوتاً ، نظرت خارج المختلى فـرأيت «اوزيمانـد اياس» كـان على بعـد عشر ياردات من المدخل ، لم يكن يغني أو يتحدث ، بل كان يسير بهدوء .

انتابني خوف جديد، كنت قد سمعت حكايات عن متشرّد قتل عدة أطفال في اثنتي عشرة قرية قبل أن يُمسك به ويْعدم هل يمكن أن تكون تلك الحكايات حقيقية؟ وهل يمكن أن يكون هذا المتشرد قاتلاً آخر؟ لقد دعوته الى هنا، ولم أُخبر أحداً بذلك ، وإن أي صرخة استغاثة لن تُسمع في القرية ، تجّمد الدم في عروقي.

كانت نظرة واحدة اليه ، عندما نظر داخل المختلى ، كفيلة لأن تعيد الثقة في نفسي . سواء كان مجنوناً أم لا كنت على يقين

انه يستحق الثقة . فكانت خطوط وجهه تدل عـلى الأخلاق الحسنة . قال وهو يتفحّص المكان بأعجاب:

ـ «أخيراً وجدتك يا «ويل» المكان هنا أنيق ومريح»

قلت «بناه ابن عمي «جاك» ، وهو أفضل مني في المهـارات اليدوية:»

قال اوزيماند اياس: «أهو الذي تُوّج هذا الصيف»

قلت: «نعم» .

قال اوزيماند اياس: «هل حضرتَ المراسيم»

هززت رأسي بالأيجاب ، وعاد يقول:

«وكيف هو بعد التتويج»

«على ما يرام لكنه تغيّر»

«ألانه أصبح رجلاً»

«ليس لهذا السبب فقط»

«حدثني اذن»

ترددت لحظات لكن صوته ، وهيئته ، ووجهه ، الهمني الشجاعة . وكان يتحدث حديثاً طبيعياً ومعقولاً ، خالياً من الكلمات والجمل الغريبة التي استخدمها في المرتين اللتـين رأيته . بدأت حديثي وأخبرته عن «جاك» وما كان يقول، كان يصغي ويهز رأسه ، ولم يقاطعني وعندما انهيت حديثي قال:

«أخبرني يا «ويل» ما هو رأيك بذوي القوائم الثلاث»

ـ «لا أعرف ، كنت أخاف منهم ، لكن الآن .... هناك أسئلة كثيرة في ذهني»

ـ «هل تسمح لي أن اجيب عن اسئلتـك ، تلك التي أعـرف اجابتها؟»
كان سؤال واحد حاضراً في ذهني فسألته في الحال
ـ «أنت لست متشرّداً !»
فابتسم اوزيماند اياس وقال:
«ذلك يعتمد على تعريفك لكلمة متشرّد ، أنا اتجول من مكان الى مكان وأتصرف بغرابة . كما ترى»
قلت له: «لتخدع الناس . وليس لأنك لا تمتلك السيطرة على النفس فعقليتك لم تتغير بعد التتويج»
ـ «كـلا، عقليتي ليست كعقليـة المتشّردين وليست كعقليـة «جاك» «ابن عمك»
ـ: «هل انت متّوج؟»
لمس بيده التاج المعدني الذي على راسه وقال:
ـ «نعم ، ولكن لم أُتوّج من قبل ذوي القوائم الثلاث بل من قبل الرجال ـ الرجال الأحرار.»
اختلط الأمر عليّ فقلت له:
ـ «لا أفهم ما تقول»
قال:ـ «وكيف يمكنك أن تفهم؟ لكن اصغ وسوف أخبرك أولًا ، هل تعرف من هم ذوو القوائم الثلاث؟»
هززت رأسي بالنفي وعاد يقول:
ـ: «نحن أيضاً لا نعرف بالتحديد . هناك قصتان تدور حولهم الأولى هي انهم مكائن معدنية من صنع الأنسان تمردت عليه

وبدأت تستعبده.»
قلت له:
ـ «تقصد صنعها في الأيام القديمة، أيام السفن العمـلاقة والمدن الكبيرة؟»
ـ : «نعم، لكن هذه القصة صعبة التصديق . فلا استطيع إدراك كيف يمكن للأنسان أن يهب الذكاء والدهاء لمكائن . أما القصة الثانية فتحكي انهم ليسوا من كوكب الأرض بل من عالم آخر»
قلت له:
ـ «من عالم آخر؟»
أجاب:ـ «الا تدرس شيئاً عن النجوم في المدرسة؟ هـذا ما يجعل القصة الثانية أقرب للتصديق وللحقيقة . ألم تدرس ان النجوم كلها عبارة عن شموس مثل شمسنا؟ وبعضها قد يحتوي على كواكب تدور حولها؟»
بدأ رأسي يدور مع الفكرة وارتبكت الأمور في ذهني ثم قلت:
ـ: «هل هذا صحيح؟»
ـ : بالطبع، ربما يكون ذوو القوائم الثلاث قد جاءوا من تلك العوالم . وقد يكونون عبـارة عن مكائن يـوجد في داخلهـا مخلوقات. لم نر ما بداخل هذه المركبات الثلاثية القوائم ، لذلك لا نعرف ما يمكن أن يكون بداخلها»
ـ: «وماذا عن التيجان؟»
ـ: «هي الوسائل التي تجعل الأنسان مطيعاً ومنصاعاً لهم»

وجدت الأمر لا يصدق ، في البداية ، وبعد تفكير تعجبت كيف لم يخطر ذلك على ذهني من قبل. كنت طوال حياتي انتظر التتويج، الذي هو دليل الرجولة، وكانت المراسيم والمهرجانات والعطلة الرسمية كلها عالقة في ذهن الجميع على انه شيء جميل على الرغم من وجود بعض قد يعاني من الآلام والتشرّد. وفي المدة الأخيرة ، عندما يبدأ المرء بعدّ الاشهر الباقية على التتويج ، بدأت الشكوك تساورني ، كان لـ «جاك» مخاوفة ، وبعد التتويج ، انمحت جميعها. قلت له:

ـ «اذن ، هم يجعلون الأنسان يفكر بالأشياء التي يريدونه أن يفكر فيها»

ـ: «انهم يسيطرون على الأدمغة ، كيف؟ والى اي حد؟ هذا لسنا متأكدين منه. كما تعرف ، ان معدن التاج متصل بلحم الرأس ، لذلك لا يمكن ازالته ، ويبدو ان بعض التعليمات والأوامر تُعطي للمتَوجين عندما يضعون التيجان على رؤوسهم وبعدها يعطي ذوو القوائم الثلاث أوامر معينة لاناس معينين ، وقد يهملون بعضاً منهم»

ـ: «وكيف تحدث حالة التشرد؟»

ـ: «هذا ايضاً شيء لا يمكننا الجزم فيه ، ربما تكون بعض الأدمغة ضعيفة فتتفتت من شدة الضغط أو ربما العكس قد تكون قوية جداً بحيث تنازع ضد التملك والسيطرة حتى تتكسر»

فكرت بذلك وارتجف جسمي ، فوجود صوت في رأس

الأنسان ولا مفر منه شيء مريع. احترقت اعصابي غضباً . لا لأجل المتشردين بل لأجل الأخرين ، والـديَّ ، واجدادي ، وجاك .

قلت متسائلاً :

ـ: «تحدثت عن الرجال الأحرار ، اذن ، ذوو القوائم الثلاث لا يسيطرون على الأرض بأجمعها»

ـ: «تقريباً ، فلا توجد بقعة أرض من دون وجودهم .

عندما جاء ذوو القوائم الثلاث أول مرة كانت أشياء مفزعة تحدث ، اذ تدمرت مدن كبيرة بأجمعها ، وقُتل ملايين الملايين من الناس او ماتوا جوعاً»

حـاولت ان افهم ماذا يعني «مليـون» لكني فشلت اذ يبلغ سكان قريتنا حوالي اربعمئة نسمة ، وهناك حوالي ثلاثين الف نسمة في مدينة «ونجستر» والقرى المحيطة بها .

وعاد «اوزيماند اياس» يقول :

ـ «الـذين نجـوا من المـوت تـوَّجهم ذوو القـوائم الثـلاث ليخـدموهم وليسـاعدوهم عـلى قتـل او اعتقـال الـرجـال الآخرين . لذلك ، وبعد ان مرّ جيل أصبحت الأمور كما هي عليها الآن . لكن استطاع بعض الرجال من الهروب الى اقصى الجنوب عَبْرَ البحر . اذ توجد هناك جبال عالية تغطيها الثلوج طوال السنة. لأن وجـود ذوي القوائم الثـلاث في الأماكن الواطئة ربما لأنهم يرحلون فوقها بسهولة اكثر او ربما لوفرة الأوكسجين في الاماكن الواطئة . وعـلى اعالي تلـك الجبال

يوجد الرجال الأحرار الذين يعملون من أجل تحرير العالم من ذوي القوائم الثلاث .وفي الحقيقة نحن نشن غارات على بعض المزارع المجاورة للحصول على الطعام» .

ـ «نحن؟ اذن أنت قادم من هناك. ومن أين لك التاج الذي ترتديه؟»

ـ «حصلت عليه من رأس رجل ميت ، حلقت شعري وصيّرته بطريقة تناسب حجم جمجمتي ، وعندما نما شعري كان من الصعب ملاحظة اذا كان مزيفاً أم لا .

لكنه لا يعطي أوامر»

ـ «اذن أنت تستطيع الترحال كالمتشردين ولا أحد يشك بك . لكن لماذا؟ ولأي غرض؟»

ـ «لأرى ما يحدث في العالم وأقدم تقريراً بذلك للرجال الأحرار، والأهم من ذلك هو أني جئت من أجلك»

جفلت لسماعي هذا الكلام وقلت :

ـ«لأجلي؟»

ـ «نعم «لأجلك» ولأجل امثالك الذين لم يتوجوا بعد والذين في سن يمكنهم طرح الاسئلة واستيعاب الأجوبة ، والذين بمقدورهم القيام برحلة طويلة وشاقة ، مليئة بالمخاطر والمغامرات»

ـ« الى الجنوب؟»

ـ «نعم، الى الجنوب، الى الجبال البيض، لأحياء حياة شاقة من أجل نيل الحرية»

ـ «هل ستأخذني الى هناك؟»

«كلا ، أنا لست على استعداد لأعـود الى هناك ، فستكـون الرحلة اكثر خطورة . أن يرحل صبي وحده قد يكون أمراً اعتيادياً ، لكن أن يرحل صبي مع متشرّد .. يجب أن ترحل وحدك اذا عزمت على الرحيل.»

ـ«لكنَّ البحر، كيف سأعبره؟»

نظر اليّ وقال مبتسماً:

ـ «هذا أسهل مرحلة في الـرحلة . ويمكنني مسـاعدتـك في المراحل الاخرى أيضاً.»

أخرج شيئاً من جيبه وقال:

ـ «أتعرف ما هذه؟»

ـ «لقد رأيت واحدة مثلها ، انها بوصلة ، والأبرة فيها تشير دائماً الى الشمال.»

ـ «وهذه؟»

أخرج من داخل بطانة ردائه شيئاً اسطوانياً فتحه ونشره على الارض . وضع حجراً على جهة منه أمسك بالجهة الاخرى بيده . رأيت عليها بعض الرسوم التي لم افهم معناها وقال: «تدعى هذه الورقة بالخارطة ، المتوّجون لا يحتاجـون لها، لذلك لم تر واحدة مثلها من قبل. انها تعلمك كيف تصل الى الجبال البيض. انظر!

هذه المنطقة تعني البحر ، وهنا الجبال البيض»

شرح لي تضاريس الأرض وكل شيء على الخارطة . وكنت

متشوّقاً لأتعلم كيف استخدم البوصلة في طريقي .
وبالنسبة للمرحلة الأخيرة من الرحلة ـ بعد عبـور البحيرة العظيمة ـ أعطاني تعليمات والتي يجب أن أحفظها جيداً ، اذ ربما سأفقد الخارطة فقد أوصاني بقوله:
ـ« حافظ عليها جيداً مهما كانت الظروف . يمكنك أن تثقب بطانة معطفك أو أي شيء ترتديه كما فعلت.»
قلت له:
ـ« سأحتفظ بها في أمان»
ثم قال وهو يشير بأصبعه على الخارطة:
«اذهب الى هذه المدينة ستجد قوارب صيد في الميناء ، هناك مركب اسمه «الجوزاء» يمتلكه واحـد من رجالنـا ، اسمه «كورتس» الكابتن «كورتس» اذهب اليه وهو سيساعدك على عبور البحر. بعدها تبدأ المرحلة الصعبة .
عبر البحر يتكلمون لغات مختلفة عن لغتك ، يجب أن تبتعد عن الأنظار ولا تتحدث اليهم . ويجب أن تسرق الطعام أثناء رحلتك»
قلت له،
«استطيع القيام بذلك . وأنت تجيد لغتهم؟»
«نعم، واجيد لغات اخرى كلغتك ، ولهذا السبب توليت القيام بهذه المهمة ، اذ يمكنني ان اكون رجلاً مجنوناً وباربع لغات»
ـ «أنا الذي دعوتك للمجيء الى هنا ، ولو لم افعل ذلك.....»
ـ«لكنت قد عثرت عليك . فلدي مهارة اكتشاف النوع المطلوب

من الصبية . والآن هل تساعدني ؟ هل يوجد صبيان آخرون في هذه القرية تعتقد انهم يستحقون المحاولة معهم؟»
ـ «كلا، لا أعرف أحداً .»
وقف «اوزيماند اياس» وقال:
ـ «اذن، سأرحل غداً . امهلني اسبوعاً قبل أن تبدأ رحلتك ، كي لا يشك أحد بوجود رابطة بيني وبينك.»
ـ «لماذا لم يدمر ذوو القوائم الثلاث الناس جميعاً بدلاً من تتويجهم؟»
ـ «لا نستطيع قراءة أفكارهم ، وهناك عدة احتمالات ممكنة .، جزء من المحاصيل الزراعية التي نزرعها تذهب الى الرجال الذين يعملون تحت الأرض في المناجم لاستخراج المعادن لذوي القوائم الثلاث وفي أماكن معينة يصطادون الناس.»
ـ «يصطادون؟»
ـ «نعم يصطاد ذوو القوائم الثلاث الرجال كما يصطاد الرجال الثعالب.»
ارتجف لسماعي هذا وعاد يقول:
ـ «ويأخذون الرجال والنساء لمدنهم لأسباب لا نعرفها»
ـ «إذن لديهم مدن»
ـ «ليس على هذا الجانب من البحر. لم ار هنا واحدة مدنهم عبارة عن قلاع من المعادن كما يقال، وتحيط بها أسوار عالية جداً .»
ـ «هل تعرف كم هي المدة الزمنية التي مضت عليهم وهم

يحكمون الأرض؟»
ـ «اكثر من مئة عام، وتبدو للمتّوجين كأنها عشرة آلاف عام.»
مدّ يده ليصافحني وقال:
ـ «ابذل قصارى جهدك . اتمنى أن أراك مرة اخرى، في الجبال البيض.»
ooo
غادر «اوزيماند اياس» القرية في اليوم التالي ، كما قال، وبدأت أقوم بالتحضيرات المطلوبة للرحلة. كان يوجد في المختلى صخرة وخلفها مكان للأختباء ـ لا يعرف مكانها سوى «جاك» ـ وهو لن يأتي هناك ـ وضعت فيها اشياءاً احتاجها في رحلتي:
ملابس ، وطعام مثل ملح، وقطع جبن ، ولحم وقد لاحظت والدتي اختفاء بعض الأشياء من المنزل وكانت تتعجب لذلك. كنت حزيناً لمجرد التفكير بالابتعاد عنها وعن والدي، وحزنهما عندما يكتشفان هروبي . لا يمكن أن أتوّج ، فالتيجان لا تعطي علاجاً لأحزان البشرية ، ولا يمكن أن أبقى كالخروف الذي ينساق الى المذبحة ، خاصة وقد عرفت ما يحصل بعدها. وادركت اني مستعد للموت بدلاً من ارتداء التاج .

الفصل الثالث

«الطريق الى البحر»



أجلت رحلتّي اكثر من اسبوع بسبب أمرين . الأول كان القمر هلالاً، اذ من المفروض أن أرحل ليلاً ، فكنت احتاج الى بـدر ليضيء لي الطـريق . الأمـر الثـاني الـذي لم يكن في الحسبان: هو أن والدة «هنري» قد توفيت .

كان «هنري» ابن عمي وابن خالتي. كانت والدته مريضة منذ مدة. لكن موتها كان مفاجئاً. وأخذت والدتي على عاتقها مسؤولية ترتيب الأمور. وأول شيء فعلته هو انها أحضرت «هنري» الى منزلنا ووضعت له سريراً في حجرة نومي. لم ارحّب بتلك الفكرة من اية وجهة نظر، وبالطبع لم استطع الاعتراض على ذلك. واسيت «هنري» ببرود، وردّ عليّ ببرود ايضاً. وكانت مشاعرنا عبارة عن اثنين يتقاسمان حجرة نوم صغيرة.

كان الوضع مزعجاً لكن ليس مهماً جداً. فالليالي لم تكن مضيئة كي ابدأ رحلتي، وظننت انه سيعود الى منزله بعد الجنازة.

لكن في صباح يوم الدفن قلت شيئاً لوالدتي واكتشفت كم كنت مخطئاً. اذ قالت:

ـ «سيمكث «هنري» معنا»

سألتها ـ «الى متى؟»

ـ «الى الأبد. أو ربما الى ان تتوّجان. عمك «رالف» لديه أعمال كثيرة في المزرعة وليس بأستطاعته رعاية صبي. وفي الوقت نفسه لا يريد أن يترك ابنه تحت رعاية الخدم طوال النهار»

لم أجب بشيء لكن تعابير وجهي ربما كشفت عما يجول بخاطري اذ قالت بقسوة غير معتادة:

ـ «لن اسمح لك ان تعبّس بسبب ذلك. لقد فقد «هنري» والدته ويجب عليك أن تتحلى بالأخلاق الجيدة وتعامله بحنان»

قلت لها:

ـ «الا يمكن في احتفظ بحجرتي في الأقل؟ توجد واحدة اخرى خالية»

ـ «كنت سأرد لك حجرتك لولا تصرفك هذا. في اقل من سنة ستصبح رجلاً، ويجب عليك ان تتعلم كيف تتصرف كالرجال، لا كالصغار العنيدين.»

ـ «لكن...»

قاطعني قائلة بغضب:

ـ «لن اناقش هذا الأمر معك. اذا نطقت بكلمة واحدة سأخبر والدك!»

خرجت والدتي من الحجرة. فكرت في الأمر كله فوجدت انه لن يغير كثيراً من خطتي. اذا اخفيت ملابسي في الطاحونة فسأستطيع التسلل الى هناك بعد ان ينام الجميع، واغيّر ملابسي هناك اذ قررت الرحيل عندما يصير الهلال بدراً.

○○○

كان الجو ممطراً في غضون اليومين ما قبل رحيلي. بعدها أشرقت شمس دافئة كفيلة لتجفف معظم الطين. جرت الأمور بصورة حسنة. وقبل ان آوي الى فراشي خبّأت في الطاحونة ملابسي، ورغيفين كبيرين، وما بقي لي إلا ان ابقى يقظاً في فراشي. كان «هنري» نائماً فأستلقيت في فراشي افكر في الرحلة، والبحر، والبلدان الغريبة عبر البحر، والجبال البيض والثلوج. كانت الفكرة مثيرة حتى بوجود ذوي القوائم

الثلاث .

ارتفع شعاع القمر الى مستوى شباك حجرتي، فتسللت من الفراش ، فتحت الباب بحذر وأغلقتها خلفي بحذر أيضاً . كان الهدوء يعم على ارجاء المنزل. صرّت السلالم تحت قدميَّ لكن أحداً لم ينتبه لذلك حتى لو سمعوها ، اذ كان منـزلنا خشبياً قديماً، وكان صرير الألواح الخشبية في الليل شيئاً معتاداً عليه. خرجت عبر الباب الكبيرة الى الطاحونة . أبدلت ملابسي هناك، ثم خرجت الى الطريق المجاور للنهر. كـانت عجلة الطاحونة ساكنة من دون حراك وكان الماء ينساب في النهر وضوء القمر الفضي معكوساً على ماء النهر.

عندما عبرت الجسر شعرت بالأمان، ففي غضون دقائق سأكون قد اجتزت القـرية. كـان في الطريق بعض القطط، وعوى كلب من بعيد، ربمـا لأنه سمـع خطواتي. وعنـدما اجتزت منزل الأرملة «انكولد» انطلقت راكضاً حتى وصلت الى المختلى مقطوع النَفَس ، وسعيداً مع نفسي لأني اجتزت الطريق من دون أن يلاحظني احد .

اشعلت شمعة وبدأت أملأ حقيبتي، وكنت قد وضعت في المختلى اشياءاً لا تكفي في الحقيبة، وبعد عدة تعديـلات في تريبها بقيت قطعة كبيرة من الرغيف لا مكان لها. فكرت أن احملها بيدي لأتوقف، عند الفجر، واتناولها كفطور. القيت نظرة اخيرة على المختلى لأتأكد اني لم انس شيئاً.

قـد احتـاج اليـه. أطفـأت الشمعـة ووضعتهـا في جيبي،

وخرجت .

كانت ليلة مناسبة للرحيل، فكانت السماء صافية والبدر والنجوم تشع بصفاء، وكان الهـواء عليلاً. رفعت حقيبتي ووضعتها على ظهري وعندما فعلت ذلك سمعت صوتاً على بعد بضعة أقدام، كان صوت «هنري» اذ قال:

ـ« لقد سمعتك، وتبعتك»

لم ارَ وجهه لكنني شعرت بنبرة استهزاء في صوته، لكن، ربما اكون مخطئاً، ربما يكون ذلك الصوت مجرد شعوري بالارتباك. لكن عنـدما تـأكدت من وجـود «هنري» اشتـد غضبي ،فرميت حقيبتي وأسرعت بأتجاهه، كنت أنا المنتصر في نزاعاتنا الأخيرة ، فكنت على يقين اني سأتمكن منه هذه المرة.

لم يفدني الغضب الأعمى والثقة التامة. اذ استطاع من ضربي واسقاطي على الأرض، نهضت، فضربني مرة اخرى وسقطت على الأرض. جلس فوقي وكبّل معصمي في يديـه، عبثاً حاولت أن اخلص نفسي منه، اذ كان قوياً ومتمكناً مني .

ثم قال:ـ

ـ«اسمع! أعرف انك تهرب من البيت فالحقيبة معك، وما أريد قوله هو أني اريد الهروب معك»

حاولت أن اخلص نفسي منه لكن من دون جدوى ثم قال:

ـ«اريد أن أهرب معك. فلم يعد لي شيء هنا»

كانت والدته امرأة مـرحه وطيبـة القلب حتى في اشهر

مرضها. أما عمي فكان قاسياً وكئيباً وكان مستعداً، لأن يتخلص من ابنه وينقله الى دارنا فأدركت ما كان يقصد «هنري».

وكان هناك شيء أخر ذو اهمية عملية اذا تمكنت من الانتصار على «هنري» ماذا سأفعل بعدها؟ أأتركه هناك وأعرض نفسي لافتضاح أمر هروبي؟ اما اذا اخذته معي.. فسأحاول التخلص منه قبل أن اصل الى الميناء والى الكابتن «كورتس» فلم يكن في نيتي اصطحابه معي الى الجبال البيض.

لم اكن احبه، وحتى لو كنت احبه فلم اكن على استعداد لأبوح له بأسراري مع «اوزيماند اياس» فقلت له:

ـ «دعني انهض!»

ـ «هل أستطيع الذهاب معك؟»

ـ «نعم»

فسمح لي بالنهوض. نفضت التراب من على ملابسي، وحدّق واحدنا بالآخر وقلت له:

ـ «انت لم تحضر معك طعاماً بالطبع، فيجب أن نتقاسم ما عندي»

كنا سنصل الى الميناء بعد يومين وكان بحوزتي زاد يكفينا نحن الأثنين، ثم قلت له:

ـ «هيابنا! من الأفضل أن نبدأ الرحيل»

○○○

قطعنا مسافة جيدة اثناء الليل، وعندما بزغت الشمس كنا قد بعدنا عن الأراضي المألوفة لنا.

توقفنا قليلاً لنستريح، تناولنا نصف رغيف وقطعاً من الجبن، وشربنا ماءاً من جدول كان قريباً منا. بعدها اكملنا سيرنا. بدأنا نتعب اكثر واكثر، وبدأت الشمس ترسل أشعتها الحارة في السماء الزرقاء الجافة.

عند انتصاف النهار، شعرنا بالحر الشديد، ثم وصلنا الى قمة تل، نظرنا الى اسفله فوجدنا وادياً اشبه بالصحن. كانت الأراضي مزروعة على نحو جيد، وعلى بعد منها كانت هناك قرية ومساكن اخرى على اطرافها، ورأينا رجالاً يعملون في الحقول. كان الطريق الذي نسير عليه يمرّ في القرية.

فجأة قبض «هنري» على ذراعي وقال:

ـ «انظر!»

رأيت اربعة رجال يمتطون جياداً في طريقهم الى القرية، ربما قد جاءوا من أجل مهمة معينة، وربما يكونون جماعة تفتش عنا.

توصلت الى قرار مفاجىء، كنا قرب غابة، فقلت لـ «هنري»

ـ «لنبق في الغابة حتى المساء، ويمكننا أن ننام هناك وتستعد لرحلة الليل»

سألني هنري:

ـ «هل تعتقد أن السفر في الليل هو افضل طريقة؟ أعرف انه ليس من السهل أن يرانا أحد في الليل لكننا في الوقت نفسه لا

نرى أنفسنا ولا نرى الطريق بوضوح. يمكننا أن نأخذ طريقاً آخر الآن. عبر الغابة فلا يرانا أحد»

قلت بغضب:

ـ «افعل ما يحلو لك، أما أنا فسأذهب الى الغابة»

ـ «كما تشاء»

تجاوبه السهل معي لم يهدىء من روعي، وانتابني شعور مزعج لأن ما قاله كان معقولاً، لكن مع هذا، سرت في هدوء الى الغابة و «هنري» يتبعني. وجدت مكاناً بين الأدغال لا يمكن ان يلاحظه أحد مهما كان قريباً، تمددت هناك، ويبدو اني نمت في اللحظة نفسها.

عندما استيقظت كان الليل قد حلّ، رأيت «هنري» نائماً بجانبي. فكرت اذا تمكنت من النهوض بهدوء، فربما استطع التسلل من دون ايقاظه، كانت الفكرة مغرية، لكنها بدت غير عادلة أن اترك «هنري» وحده في الغابة.

مددت يدي لأيقاظه فلاحظت شيئاً: لقد ربط حزام الحقيبة حول ذراعي فكان من غير الممكن أن اخذها من دون ايقاظه، فأحتمال التخلي عنه قد خطر على ذهنه.

استيقظ «هنري»، وتناولنا بقية الرغيف وقطعة من اللحم، قبل أن ننطلق. كانت الأشجار كثيفة فلم نتمكن من رؤية السماء الى أن خرجنا من الغابة. أدركت أن الظلام لم يكن بسبب حلول الليل بل لان الغيوم قد تجمعت في السماء حين كنا نياما. ثم شعرت بقطرات من المطر على ذراعي العاريتين

ووجهي.

استطعنا شق طريقنا في الظلام الى القرية، كانت الاضواء منارة في المنازل، وتشع من الشبابيك ومكننا الضياء من الابتعاد عن الدور كي لا يرانا أحد، ثم اشتد المطر، كان المساء حاراً فتيبس الماء علينا عند سيرنا وعندما وصلنا الى اعلى التل اتخذنا الطريق الجنوبي الشرقي، استمرينا في السير حتى وصلنا الى كوخ صغير متداع . اقترح «هنري» أن نقضي الليل في الكوخ حتى بواكير الصباح. رفضت ذلك واستمريت في سيري و «هنري» يتهادى خلفي .

ثم قال:

«اصغ !»

ـ ماذا وراءك الآن»

ـ «اظن أن أحداً يتبعنا»

سمعت صوت أقدام خلفنا وأدركت انها اكثر من قدمين. ربما قد رآنا أحد من سكان القرية واخبر الرجال الأربعة الذين رأيناهم قبل ذلك. حتماً سيتمكنون من الامساك بنا .

همست الى هنري:

ـ«اركض!»

انطلقت راكضاً في عتمة الليل، وكنت اسمع وقع اقدام هنري خلفي وكنت أيضاً اسمع وقع اقدام الذين يتبعوننا. ضاعفت سرعتي وفجأة عثرت قدمي اليمنى، شعرت بألم مفاجيء وسقطت على الارض. فتش «هنري» عني في العتمة

وقال:

ـ «اين انت؟ هل انت بخير؟»

حاولت النهوض وعندما وضعت ثقلي على كاحلي الأيمن شعرت بألم. حاول «هنري» رفعي وسألني

ـ «هل أصبت بشيء؟»

ـ «كاحلي.. اظن انه كُسر. من الأفضل لك أن تعدو سيلحقون بنا في أية لحظة».

أجاب هنري بصوت غريب:

ـ «اظن انهم هنا الآن»

ـ «ماذا؟»

شعرت بنفس حار قرب وجنتي، مددت يدي فأمسكت بشيء صوفي الذي تراجع بسرعة. قلت.

ـ «خراف؟»

فأجاب هنري:

ـ «اعتقد انهم فضوليون».

ـ «أيها الغبي الأحمق، جعلتنا نركض هرباً من قطيع خراف، انظر ماذا حدث لي!»

لم يقل شيئاً، بل ركع قربي وبدأ يتحسّس كاحلي، تألمت كثيراً وعضضت شفتي لأتجنب الصراخ. فقال هنري:

ـ «لا أعتقد ان كاحلك مكسور، انه مجرد التواء، أو شيء من هذا القبيل. يجب أن ترتاح يوماً أو يومين. من الأجدر أن نرجع الى الكوخ. سأحملك كما يفعل رجال الأطفاء»

بدأ المطر يتساقط بشدة وهذا الذي منعني من الرد على «هنري» بعصبية ورفض مساعدته. واجه صعوبة في حملي واعتقد اني كنت اثقل مما توقع. كان يضطر للاستراحة بين اونة وأونة حيث يضعني على الأرض ليلتقط انفاسه وكل مرة كنت اشعر بالألم في كاحلي. بعد مدة بدأت افكر ان «هنري» قد اخطأ طريقة الى الكوخ.

اخيراً لاح الكوخ في الظلام، فتح «هنري» الباب وبعد بضع خطوات انزلني على الارض، تلمس طريقه في الظلام فوجد كومة من القش في الزاوية، زحفت حتى وصلت اليها. كان كاحلي يؤلمني وكنت مبتلاً وفي حالة تعيسة. لم أستطع النوم بسهولة فقد اخذت قسطاً وافياً من النوم في اليوم السابق.

عندما استيقظت كانت الشمس قد بزغت، والمطر قد توقف، وكانت السماء زرقاء صافية. كان الكوخ يحتوي على مسطبة ومنضدة صغيرة، وتعلق على الجدار مقلاة وابريق شاي وكأسان من الخزف الصيني. وكان يوجد موقد وقطع من الاخشاب وكومة القش. لم اجد «هنري»، ناديته فلم يأتني رد. زحفت على الأرض حتى وصلت الى الجدار وحاولت سحب نفسي لأقف واتكيء على الجدار.

لم أجد أثراً لـ «هنري» ولا الحقيبة. سرت الى خارج الكوخ وأنا اعرج. جلست على الأرض واسندت ظهري الى جدار الكوخ الصخري. كانت اشعة الشمس دافئة فبقيت

افكر بوضعي. بدا لي أن «هنري» قد تخلى عني، أخذ بقية الطعام وتركني هناك لا حول لي ولا قوة، وفي الوقت نفسه كنت جائعاً. لم استطع التفكير بوضوح، فوجت نفسي انغمس في غضب شديد مما جعلني انس ألم كاحلي وفراغ معدتي.

كنت على بعد ميلين في الأقل من اقرب مسكن.، فكرت أن أزحف تلك المسافة على الرغم من انه لم يكن عملاً ممتعاً. أو ربما سيمر راع مثلاً أثناء النهار لكن في كلتا الحالتين سأُعاد الى «ورتون» وستكون نهاية مخجلة وتعيسة لرحلتي. بدأت أشعر بالأسى لنفسي.

كنت في قمة الأحباط عندما سمعت أحداً جانب الكوخ، وبعد لحظة سمعت هنري:

ـ «هل أنت على ما يرام يا «ويل»؟

أجبته:

ـ «طننت انك هربت، لقد أخذت الحقيبة معك»

ـ «احتجت اليها لأضع فيها اشياءاً»

ـ «أي أشياء؟»

فقال:

ـ «سنعاود، رحلتنا بعد يومين، وفكرت بجمع بعض الطعام».

فتح الحقيبة فرأيت رغيفاً ولحماً. ثم عاد يقول:

ـ «حصلت عليها من بيت ريفي في أسفل التل. كان شباك المطبخ مفتوحاً فأخذت هذه الكمية من الزاد كمرحلة أولى»

شعرت فوراً بالأرتياح نظر «هنري» الي وهو عبس الوجه.

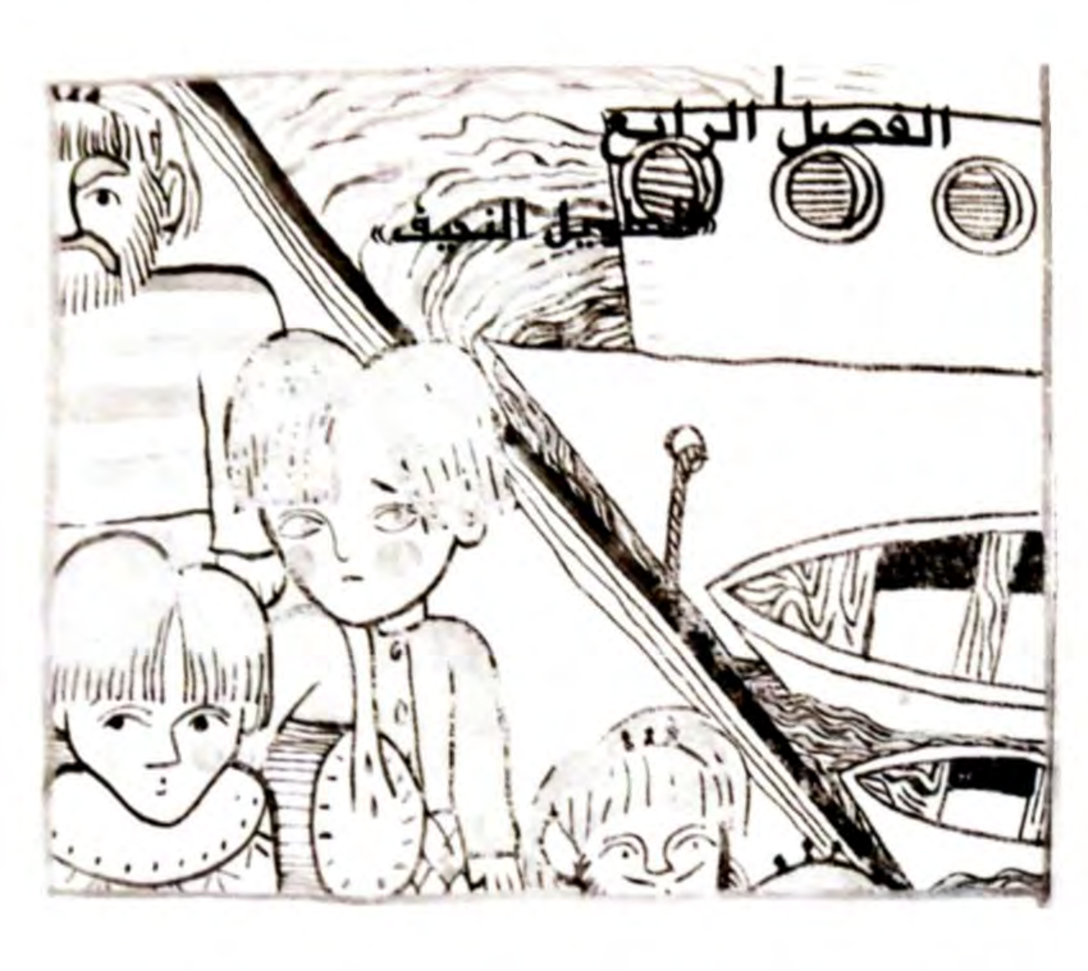
كان بأنتظار الثناء على ما فعله. لكنني قلت بحدة:
- «وما حصل للطعام الذي كان في الحقيبة»
حدّق «هنري» بي وقال:
- «لقد وضعته على الرف، ألم تره؟»
لم انتبه لذلك بالطبع.

مضت ثلاثة أيام حتى تشافى كاحلي واصبح بمقدوري الرحيل. في غضون مكوثنا في الكوخ، ذهب «هنري» مرتين او اكثر الى القرية لجلب طعام وكان لي متسع من الوقت لأفكر كان «هنري» هو سبب الذعر الزائف من الخرفان، بسبب حدة حاسة السمع عنده. أنا أيضاً خدعت بالصوت، وانا الذي أصرّ على الرحيل في الليل في حين اراد هو أن يستريح والآن اعتمدت عليه. اما المسامحة فلم تكن سهلة بعد ذلك العداء الطويل بيننا، خاصة في ظروف مثل تلك الظروف.
لم أجد وسيلة في تنفيذ خطتي والتخلص منه عندما اصل الى «رامني». بعد تفكير طويل، أخبرته بكل شيء:
الى أين نتجه، وماذا تعلمت من «اوزيماند اياس» فقال
- «سبب رغبتي الحقيقي في الهروب هو التتويج ، لم افكر في مكان محدد للأختباء، لكنني فكرت بالأختفاء لبعض الوقت»

تذكرت «اوزيماند اياس عندما سألني اذا كنت أعرف احداً على استعداد للرحيل الى الجنوب. والجواب له، وضعت يدي داخل بطانة سترتي وقلت لـ «هنري»
- «هذه هي الخارطة» .

الفصل الرابع

«الطويل النحيف»



وصلنا الى «رامني» عند الغروب، وكنا مبتلين وتعبين، اذ كان الجو في ذلك اليوم متقلّباً بين مشرق وعاصف ممطر. وكان كاحلي ما يزال يؤلمني بشدة.

لم يعرنا أحد أي اهتمام لأننا كنا في مدينة ولا نتوقع من

سكان المدن ان يميزوا بين سكان المدينة وبين الغرباء، على عكس ما هو عليه في القرى. هذا فضلاً عن أن «رامني» مدينة ساحلية وفيها ميناء كبير للسفر والقدوم. كانت المدينة في صخب من النشاط والحركة. رأينا البحر الى نهاية شارع طويل وهناك كان الرجال يرتدون زي البحارة الازرق ويدخنون الغليون، وعلى الشاطيء كانت مجموعات من طيور النورس تبحث عن الطعام. وكانت رائحة المنطقة مزيجاً من رائحة التبغ، والتوابل، ورائحة البحر نفسه.

وصلنا الى الميناء عند الغسق، ووجدنا زهاء اثني عشر مركباً وزورقاً وسفينة، من مختلف الأحجام، موثوقة على رصيف الميناء واخرى راسية على بعد مسافة من الرصيف. سرنا على الرصيف ونحن نبحث عن سفينة «الجوزاء» فلم اجدها قلت لـ «هنري»

- «ربما تكون» الجوزاء» في عرض البحر»

- «وماذا يجب أن نفعل؟»

- «يجب ان نجد مأوى لنا»

- «لا مانع لدي من البحث عن الزاد ايضاً.

لقد انتهت مؤونتنا صباح ذلك اليوم. سرنا في المدينة وكانت الحانات مضاءة وكنا نسمع الأغاني من داخل بعض منها، ونشم رائحة الطعام من داخل البعض الآخر، هذا جعل معدتي تئن في تمرد على خلوها من الطعام وعلى شباك احدى الحانات وجدت اعلاناً مكتوباً عليه (فطائر حارة -

السعر ١٠ بنسات) كان بحوزتي بعض البنسات التي جلبتها معي والتي لم اسرفها الى ذلك الحين. أمرت «هنري» ان ينتظرني خارجاً فدخلت الى الحانة»

كان السقف في الداخل خشبياً وواطئاً، ويوجد في الداخل منضدات جلس الناس حولها يتناولون الطعام ويشربون الجعة. لم اتفحصهم عن قرب. أعطيت للبائعة النقود واخذت فطيرتين من فتاة سمراء كانت طول الوقت تتحدث مع بحار جالس على منضدة قريباً منها.

توجهت الى الباب وفجأة امتدت يد وقبضت على ذراعي.

رأيت رجلاً بدالي ضخماً، لكن عندما وقف، وجدت انه بدين. وبسبب قصر ساقيه، كان اطول مني بأنجين فقط. وكان أشقر الشعر واللحية، وكانت خطوط التاج واضحة من بين شعره. قال لي بصوت خشن وفظ:

ـ «ما رأيك ان تصبح بحاراً؟»

قلت له:

ـ «لا أريد»

حدّق بي وسألني:

ـ «هل أنت من هذه المنطقة؟»

ـ «نعم»

ـ «وسيبحث عنك والداك ان لم تعد الليلة؟»

قلت بجرأة:

ـ «أنا أسكن على بعد ثلاثة شوارع من هنا. سيبحثان عني إن

لم أعد في الحال»

صمت لحظة ثم اطلق ضحكة عالية لا تبشر بخير، ثم قال:

- «لهجتك تدل على انك من الأرياف»

حاولت أن احرّر ذراعي منه، فعاد يقول:

- «لا تثر اية ضجة، أدخر جهودك للعمل في سفينة البجعة السوداء»

سحبني الى الباب. ولم ينتبه أحد لذلك. فأدركت ان هذا المشهد لابد أن يكون اعتيادياً بالنسبة لهم. والصراخ لن يفيد بشيء أيضاً. اذا لم يتجاهلوني فأنهم سوف يسألونني اسئلة لا أستطيع الاجابة عليها. وفكرت ربما أجد فرصة للتخلص من قبضته القوية خارج الحانة. قبل الوصول الى البجعة السوداء التي كانت راسية على بعد مئة ياردة من الحانة،

وعندما وصلنا الى الباب رأيت رجلاً طويلاً ذا وجه طويل ولحية سوداء، قلت بأندفاع:

- «كابتن كورتس».

القى عليّ نظرة سريعة، وقال لآسري:

- «دعه يا «رادلي» انه صبيّ ، لقد عينته عندي هذا المساء»

انتظر الرجل الذي يدعى «راولي» وكأنه يوشك ان يجادل الأمر، لكن الكابتن «كورتس» اطلق سراح ذراعي من قبضته فقال «راولي»:

- «يجب أن تبقيه على متن السفينة، ولا تدعه يتجّول في المدينة»

فردّ عليه الكابتن «كورتس»:

ـ «استطيع الحفاظ على أفراد طاقمي، ولست محتاجاً الى نصائحك»

○○○

لقد أخبرني «اوزيمانداياس» ان عبور البحر هو أسهل جزء في الرحلة، وقد كان على حق. كانت «الجوزاء» ترسو في البحر قرب الميناء وكانت توشك أن تبحر. أخذنا الكابتن «كورتس» اليها بوساطة زورق تجذيف. وجذف الكابتن بين القوارب والعوامات حتى وصلنا اليها. كانت «الجوزاء» سفينة صيد كبيرة وهائلة صعدنا اليها بوساطة درج مصنوع من الحبال. وعلى ظهر السفينة وجدنا واحداً من ستة من أفراد الطاقم. كان طويلاً ويتكلم بهدوء ورزانة، وكان يرتدي قرطاً من الذهب في اذنيه. أخبرنا الكابتن ان بقية طاقم السفينة جميعهم متوجهون ما عدا ذلك الرجل.

كان من الضروري ان نبتعد عن أنظار بقية الطاقم، وذلك بسبب صعوبة أن نشرح لهم سبب رحلتنا في الذهاب فقطدون الأياب. استقر بنا المقام في قمرة الكابتن «كورتس» وكان فيها سريران فقط. كنا تعبين جداً فنمت في الحال وبعد مدة صحوت على وقع أقدام فوق القمرة وصوت المرساة وهي ترفع من الماء. كنت قد سمعت حكايات عن أمواج البحر وما تسببه للمسافرين من الشعور بدوار البحر، وعندما استيقظت في اليوم التالي لم اشعر بالدوار. جلب لنا الكابتن الفطور وقدحين

مليئين بسائل بنّي وحار ذي رائحة غير مألوفة، شربه هنري وسأل:

ـ «ما هذا؟»

أجابه الكابتن:

ـ «انها قهوة ومصدرها من بلاد بعيدة، وهي غالية الثمن في هذه المنطقة. هل أنتما على ما يرام؟»

بعد أن اجبنا بالأيجاب عاد يقول:

ـ «لا تقلقا لن يدخل أحد هنا. فهم يعرفون اني اقفل باب القمرة لكن يجب أن تحتفظا بالهدوء. سنصل الى الميناء غداً قبل شروق الشمس، اذا كانت الرياح مؤاتية»

كان في قمرة الكابتن شباك مدور لا يفتح فكان بأمكاننا رؤية امواج البحر الزرق. كان منظر البحر غريباً بالنسبة لنا، اذ لم نرَ من قبل كمية هائلة من الماء كهذه. فتننا بمنظره في البداية، بعدها اعتدنا عليه، ثم بدأنا نضجر منه وفي غضون ذلك اليوم حدث شيء واحد مفزع ليكسر الرتابة التي كنا فيها.

بعد الظهر، سمعنا صوتاً غريباً كأنه قادم من البحر نفسه. كان «هنري» ينظر من الشباك المدور وقال:

ـ «تعال وانظر يا «ويل»!»

كان في صوته نبرة اصرار، فوضعت جانباً قطعة الخشب التي كنت انحتها على شكل سفينة وانظممت اليه لأنظر ما هناك. كان لون البحر ازرق مخضراً تومض فوقه أشعة الشمس الذهبية. رأيت شيئاً يتحرك ويومض بين الضباب

الرقيق فوجدت انها ستة مراكب ثلاثية القوائم فقلت بتعجب:
ـ «يستطعن السير على الماء؟»
ـ «انهن يأتين صوبنا».

كانت المركبات تسير بسرعة فائقة، ورأينا ان القوائم الثلاث لا تتحرك كما تفعل على البر، بل كانت منتصبة وثابتة. كانت القوائم على ارتفاع عشرين قدماً، وكانت المركبات تسير أسرع من حصان سباق. استمرت في السير تجاهنا، ازداد ارتفاع امواج البحر، وازدادت سرعة المركبات وتمكنت من رؤية اشياءاً تشبه العوامة الى نهاية كل قائمة. كانت المركبات توشك أن ترتطم «بالجوزاء» واذا حصل ذلك فأن السفينة ستنقلب وتغرق، أية فرصة لنا في النجاة ونحن هناك في قاع السفينة، في قمرة مقفولة؟

على بعد خمس عشرة ياردة من السفينة عكست المركبة القائدة اتجاهها الى اليسار لتتجنب الأصطدام بنا وتبعتها المركبات الاخريات. هبت رياح قوية من حولنا عند مرورهن بالسفينة والتي بدأت تصعد وتهبط وتتمايل، وعند ارتطام أول موجة عالية بها تأرجحت السفينة. تحركت الأرض من تحتنا فسقطنا. حاولت النهوض لكني دفعت بقوة كبيرة الى الشباك الذي فتح من شدة الضربة فأرتطمت موجة بوجهي وتبلّلنا ـ نحن الاثنان ـ حاصرت المركبات السفينة مدة ثم بدأت تبتعد.

أخبرنا الكابتن «كورتس» بعد تلك المغامرة، ان هذا اللقاء

مع المركبات هو شيء اعتيادي. وقد واجهت «الجوزاء» اثنتي عشرة حالة مثل تلك. ولا أحد يجد مبرراً لتصرف المركبات الثلاثية القوائم بتلك الطريقة.

ربما لمجرد المزاح، والذي يمكن ان ينتهي بمأساة. اذ غرقت بعض القوارب نتيجة لعمل مثل ذلك. كنا مبتلين ونرتجف. أما أنا فكنت ارتجف بسبب ما قامت به المركبات الثلاثية القوائم لا بسبب الماء. اذ لم أفكر من قبل أن ذوي القوائم الثلاث يحتلون البحر أيضاً، وكانت هذه الحقيقة سبباً لحزني وكآبتي.

قال هنري للكابتن:

- «تصرفات هذه المركبات لا تبدو كالمركبات الثلاثية القوائم»

- «تبدو؟ أعتقد انك شاهدتها وسمعتها عند مراسيم التتويج فقط. ففي المناطق الشمالية يحضر ذوو القوائم الثلاث لمراسيم التتويج فقط. لكن في الجنوب سوف ترى المزيد منها وتسمع المزيد ايضاً»

كان هذا شيئاً آخر اواجهه كحقيقة فكان ذوو القوائم الثلاث مرتبطين بذهني بالتتويج فقط. عندما أخبرني «اوزيماند ياس» أن ذوي القوائم الثلاث يصطادون الرجال كما يصطاد الرجال الثعالب، لم اصدقه اذ رفض ذهني الفكرة على انها ضرب من خيال. لكنها لم تعد كذلك. بدأت هذه الحقائق تخيفني وتحزنني.

○○○

غادرنا «الجوزاء» بالاسلوب نفسه الذي وصلنا به الى ظهر السفينة. وقبل المغادرة زوّدنا الكابتن بالزاد وزود «هنري» بحقيبة، ووجه لنا نصيحته ما قبل الوداع:

ـ «استمرا بالأبتعاد عن الناس ولا تتعاملا معهم تذكرا انهم يتحدثون لغة تختلف عن لغتكم، فلن تفهموهم. ولن يفهموكم. واذا عثر عليكم أحد فأنه سيلمكما للتتويج. فقد حدث أمر كهذا من قبل، لصبيان مثلكم، كانوا يتجهون الى الجبال البيض.

وقد عثر عليهم أجانب وتوّجوا في ارض أجنبية. وصاروا جميعهم متشردين.

حدث لهم التشرد ربما لان التجان مُصنّعته حسب لغات الأقوام، ولأن هؤلاء الصبية لم يفهموا اللغة فتعوقوا. أو ربما ان التيجان في الرأس ان لم تحصل على التجاوب فأنها تسبب العَوق، ولا أحد منا يعرف أية طريقة يريد منا ذوو القوائم الثلاث ان نتجاوب معهم. على أية حال ابتعدوا عن الناس، وارحلا عن هذه المدينة بأسرع ما يمكن، وحاولا تجنب المدن والقرى في طريقكما.»

غادرنا «الجوزاء» بوساطة قارب تجذيف حتى وصلنا الى ميناء ساكن يرسو فيه زورقان او ثلاثة. سمعنا من بعيد صوت مطرقة وغناء. وعندما اقتربنا اكثر تمكنا من تمييز، من خلال ضوء القمر، سور الميناء العالي، وسطوح المنازل خلفه. كانت بالنسبة لنا مدينة غريبة في بلاد غريبة ولا يجب التحدث

الى سكانها. وعندما وصلنا قال لنا الكابتن:
- «هيا انطلقا! حظاً سعيداً»

صعدنا الى رصيف الميناء، وجذف الكابتن بأتجاه «الجوزاء» ارشدنا الكابتن أن نسير الى جهة اليسار، ويوجد على بعد مئة ياردة طريق الى اليمين، وهو الطريق الذي يؤدي الى خارج المدينة.

○○○

سرنا في طريق بمحاذاة سور الميناء، وكان خلف السور صف من بيوت أعلى وأضيق من البيوت في مدينة «رامني». وبينما كنت مع «هنري» نسير بأتجاه المدينة، فتحت باب في السور وجاء رجل وعندما رآنا صرخ وركض خلفنا، وجاء خلفه عدة رجال ليلحقوا بنا. بعد ان ركضت مسافة خمسين ياردة أمسك الرجل بي. كان ضخماً ووحشي الشكل، ذا أنفاس كريهة الرائحة، هزني وتحدث بلغة غريبة، فهمت من نبرته انه كان يسألني. رأيت «هنري» وقد أمسك به الرجال. تساءلت اذا كان الكابتن «كورتس» قد سمع الاصوات، ربما لا، لكن حتى لو سمع ذلك فليس بأستطاعته فعل شيء. اذ قال ذلك بمنتهى الصراحة.

سحبونا الى الشارع ثم الى حانة. لم تكن كتلك الحانات في مدينة «رامني» اذ كانت حجرة صغيرة مليئة بدخان التبغ ورائحة الكحول. حتى تلك الروائح كانت تختلف عن الروائح في «رامني». كان في الحانة ست منضدات حولها كراسي. وقف

الرجال حولنا يتحدثون، لم افهم حديثهم. وكانوا يحركـون أياديهم بكثرة اثناء الحديث.

شعرت ان ظنهم قد خاب بشأن شيء ما. رأيت سلمّاً الى اخر الحجرة نصفه يؤدي الى الاعلى ونصف اخر الى الاسفل ووقف أحد يراقبنا من اعلى السلم. ويحدق من فوق الرؤوس التي كانت تحيط بنا.

كان طويلاً ولا يرتدي تاجاً. لكن الشيء الذي شد انتباهي اليه هو الشيء الذي كان يرتديه على وجهـه اذ امتدت ومن خلف اذنيه قطعتان رفيعتان من المعدن لتشكل حول عينيه دائرتين فيهما قطعتان مَن الزجاج المدور أمام كل عين. وعلى الرغم من الوضع المحرج الذي كنت فيه، ضحكت لمنظره. كان شكله غريباً. كان وجهه يوحي بتقدمه في العمر بسبب ذلك الشيء الغريب الذي يرتديه. كان أطول مني بكثير وربما يكون اصغر مني سناً.

لم يكن عندي متسع من الوقت لأتأملـه جيداً، اذ بعـد دقائق من التحدث بلغتهم الغريبة، توصل الرجال الى قرار ما . وبعد حركات عـديدة في أيـاديهم سحبونـا الى اسفل السلالم ودفعونا من خلال باب . سقطت على الارض من اثر الدفعة وسمعت صوت مفتاح يقفل الباب علينا.

كنا نسمع ولمدة نصف ساعة، وقع اقدام فوق الحجرة. وأصواتاً خـافتة تتحـدث، ثم سمعنا اصـوات انصرافهم. ورأينا من شباك في اعلى الحجرة سيقاناً تمر، فالذين كانوا

يشربون في الحانة كانوا في طريقهم الى منازلهم. لم ينزل احد ليتفقدنا ، وسمعنا وقع اقدام شخص ربما كان صاحب الحانة. بعدها لم نسمع اي صوت .

بدا لي اننا قد قُيدنا واحتجزنا حتى موعد التتويج.

كنت خائفاً وأنا افكر بقرب مدة التتويج، ربما في اليوم التالي، وبدأت افكر في حياة الوحدة والجنون والتشرد التي تنتظرني. لن يكون «هنري» معي، لان المتشردين يتجولون بمفردهم، كل واحد منهم ينغمس بأحلامه وخياله الخاص.

قال هنري:

ـ «اني اتساءل...»

شعرت بالراحة لمجرد سماع صوته فقلت له

ـ «عن ماذا؟»

ـ «اتساءل اذا استطيع حملك لتصل الى ذلك الشباك»

لم اظن انهم سجنونا في مكان نستطيع الهروب منه بسهولة لكن لن اخسر شيئاً من المحاولة. ركع «هنري» بمحاذاة الجدار ووقفت على كتفيه ـ بعد ان خلعت حذائي. كان كاحلي ما يزال يؤلمني لكني تجاهلت الألم. بدأ «هنري» ينهض ببطء بينما كنت استند على الجدار بيدي حتى امسكت بقبضان الشباك. سحبت القضبان الى الامام ثم دفعتها الى الخلف، كانت مثبتة بقوة في الحجر من الجهتين.

فقلت لـ «هنري»

ـ «لا فائدة من ذلك»

ـ «حاول مرة اخرى !»

تحرك «هنري» وسمعت ما سمعه، اذ سمعنا صوت مفتاح يدور في الباب. قفزت الى الارض وبقينا ننظر الى الباب فتح الباب محدثاً صريراً، ودخل من فتحة الباب شعاع من الضوء مصدره مشعل مضاء ، وقد انعكس ضوء على دائرتين من الزجاج .

لقد كان الصبي الذي رأيته في اعلى السلم هو الذي فتح الباب. تحدث الينا بلغتنا قائلا:

ـ «لا تحدثا صوتاً. سأساعدكما.»

تبعناه في هدوء الى اعلى السلالم. وصرت الالواح الخشسبية القديمة تحت اقدامنا. سرنا عبر الحانة، فتح الباب ووصلنا الى الخارج همست له:

ـ «شكراً، نحن.....»

مدّ راسه قريباً مني، وكان يبدو مضحكاً عن قرب ثم قال:

ـ «اترغبان في الذهاب الى القارب؟ يمكنني مساعدتكما»

ـ «كلا ليس الى القارب، بل الى الجنوب»

ـ «الجنوب! الى البر وليس الى البحر؟»

ـ «نعم»

ـ «يمكنني مساعدتكما في ذلك أيضاً»

اطفأ المشعل ووضعه في داخل الحانة، عند الباب، وعاد يقول:

ـ «سأريكما الطريق»

كان ضوء القمر الفضي منعكساً على الماء ، وكانت نسمة

من الهواء تهب من البحر. نظرت الى السماء فوجدت بعض الغيوم تغطي مناطق من السماء لتحجب النجوم. بدأنا نسير في الطريق الذي وصفه الكابتن لنا وبعد مسافة قصيرة وصلنا الى زقاق ذي منعطفات. كان ضيقاً جداً بحيث ان ضوء القمر لا يتخلله.

بعدها وصلنا الى شارع. ثم الى زقاق اخر واخيراً وصلنا الى شارع مرة اخرى. كان الشارع ضيقاً تصطف على جانبيه بيوت صغيرة وضيقة. سرنا حتى وصلنا الى مرج مليء بالابقار. قال الصبي:

ـ «هذا هو الطريق الذي يؤدي الى الجنوب»

سألته:

ـ «هل سنسبب لك متاعب، هل سيعلمون انك أنت الذي اطلقت سراحنا؟»

ـ «لا يهمني ذلك ، هل يمكنكما أن تخبراني لماذا تريدان الدخول الى البلاد؟»

تردّدت دقائق بعدها قلت له:

ـ «سمعنا عن وجود مكان في الجنوب لا يوجد فيه تتويج ولا مركبات ثلاثية القوائم»

ـ «تتويج؟ مركبات ثلاثية القوائم؟»

أمسك برأسه، وقال بضع كلمات بلغة غريبة ثم عاد يقول:

ـ «تلك الاشياء الكبيرة ذات القوائم الثلاث تدعى مركبات ثلاثية القوائم؟ مكان لا يتواجدون فيه؟

هل هذا ممكن؟ انهم يرحلون في كل مكان .
أجبته:
ـ «لكن ليس في الجبال»
هز رأسه وسألني:
ـ «توجد جبال في الجنوب يستطيع أحد الاختباء فيها، هل ستذهبان الى هناك؟ هل يمكنني أن أرحل معكما؟» .
نظرت الى «هنري»، كانت رحلتنا تحتاج الى مصدر للمعلومات، وخاصة من شخص نعرفه جيداً ليكون مصدراً لنا. خاصة اذا كان يعرف المدينة جيداً ويعرف لغتهم. وكان اقتراحه شيئاً مفرحاً بالنسبة لنا، فقلت له:
ـ «وهل يمكنك أن تأتي معنا كما أنت؟ فالعودة لاحضار حاجياتك ستكون مجازفة لنا»
ـ «انا مستعد الان»
مدّ يده ليصافحني ثم ليصافح «هنري» وقال»
ـ «اسمي:» زان ـ بول»
كان يبدو غريب الاطوار. وكان طويلاً ونحيفاً ويرتدي معدنا وزجاجاً على وجهة، فضحك «هنري» وقال:
ـ «الطويل النحيف»
نظر الى «هنري» ثم ضحك هو ايضاً.
الفصل الخامس
مدينة تأريخية

الفصل الخامس

«مدينة تاريخية»



استأنفنا رحلتنا في وقت متأخر من الليل، وقطعنا مسافة زهاء عشرة الى اثني عشرة ميلاً. وعند بواكير الصباح توقفنا لنرتاح ونأكل. أخبرنا «زان ـ بول» ـ الطويل النحيف ـ سبب اندفاع الرجال خلفنا للامساك بنا. في الليلة المنصرمة، كان

بعض من صبية المدينة يدمرون القوارب التي ترسو في الميناء لذلك اعتقد البحارة اننا من اولئك المجرمين.

كان ذلك من سوء طالعنا. على الرغم من ان المشكلة قد انتهت على خير. اخبرنا ايضاً شيئاً عن نفسه. توفي والداه عندما كان طفلاً رضيعاً، فأحتضنه عمه وعمته اللذان يملكان الحانة. وبدا انهما اعتنا به ورعياه على احسن ما يرام لكن من دون عاطفة، او بالاحرى، من دون اظهار عواطفهما تجاهه.

وكونت انطباعاً انهما كانا يخشاه. هذا الامر ليس سخيفاً كما يبدو، اذ هناك صفة في الطويل النحيف. لا تصدق وهي عقليته المبدعة.

لقد تعلمّ لغتنا. مثلاً بوساطة كتاب قديم يعطي تعليمات في اللغة، فدرسه مع نفسه وأجاد اللغة . حتى الاداة الغريبة التي يرتديها كانت من تصميمه. كان نظرة ضعيفاً فأفترض ان البحارة يستخدمون التلسكوب ليرون الاشياء البعيدة عن قرب. لذلك فأن عدستين امام كل عين تمكنه من الرؤيا بوضوح. وقد جرب عدداً من العدسات حتى وجد شيئاً مناسباً له وكانت له محاولات في امور اخرى لكنها اقل نجاحاً من الاولى.

فقد لاحظ ان الهواء الحار يرتفع الى الاعلى. وقد حصل على مثانة خنزير ميت، ملأها بالبخار من ابريق لغلي الماء، فرآها ترتفع الى الاعلى، لذلك حاول ان يصنع شيئاً اسماه «بالمنطاد» وهو كبير جداً ومصنوع من قماش المشمع ومثبت

فيه منصة خشبية وعليها صحن نحاسي لغلي الماء تحت فتحة في المنطاد، تأمل ان يرتفع المنطاد الى الاعلى لكن ذلك لم يحدث.

بدأ «الطويل النحيف» يشعر بعدم الارتياح عند قرب موعد التتويج وايقن ان ذلك كان سيضع نهاية لاختراعاته ادركت بأن ليس «جاك» وانا و «هنري» الذين تساورهم الشكوك حول التتويج. يظهر ان معظم أو جميع الصبيان كانوا يفكرون بذلك. لكنهم لم يتطرقوا لهذا الموضوع علناً. قال «الطويل النحيف» ان فكرة المنطاد قد طرأت على ذهنه عندما كان يتمنى ان يجد نفسه طائراً في الهواء الى اراض بعيدة وغريبة لا يوجد فيها مركبات ثلاثية القوائم. وقد اهتم بشأننا عندما رآنا لاول مرة لانه خمن اننا كنا آتين من شمال البحر وهناك حكايات قد سمعها تروي ان تلك المناطق توجد فيها المركبات بنحو اقل من بقية المناطق.

وصلنا الى مفترق طرق، بعد ان عاودنا سيرنا بمدة قصيرة. وادركت مرة اخرى حسن طالعنا الذي رمى «الطويل النحيف» في طريقنا ليرشدنا. كنت سأسلك الطريق الجنوبي. لكنه اختار الطريق الغربي، وقال:

– «سنأخذ هذا الطريق، بسبب القطار»

فسأله هنري:

– «وما هو القطار؟»

ردّ عليه:

ـ «من الصعب أن أشرح لك ما هو، لكن ستراه بعد قليل»

○○○

كان «القطار» في داخل المدينة. لكننا صعدنا الى اعلى تل خارج المدينة. وعندما نظرنا الى اسفل التل رأينا طريقاً مستقيماً عليه قضيبان معدنيان متوازيان يومضان واللذان يبدوان من داخل المدينة ويمتدان الى خارجهما الى ان يغيبا عن الانظار. وفي نهاية المدينة رأينا خمسة اشياء تبدو كأنها علب عملاقة تحتها عجلات، وبدت العلب متصلة ببعضها. ووقف امامها اثنا عشر حصاناً مطقمين زوجاً زوجاً واخر زوجين منها متصلين بأول علبة بشكل يختلف عن الحصن التي في المقدمة.

امتطى رجل احد الحصانين الاولين، واخر الحصان الثاني وبعد سماع اشارة ما، انطلقت الحصن وبدأت العلب تتحرك ببطء، ثم أسرع، وعندما اشتدت السرعة انفكت اول ثمانية حصن وابتعدت عن مسار العلب. اما الاربعة الباقية فاستمرت بسحب العلب. مرت من أمامنا كانت اول علبتين تحتوي على فتحات فرأينا ناساً جالسين في داخلها. اما الثلاثة الباقية فكانت مغلقة.

شرح لنا «الطويل النحيف» «زان بول» ان الحصن الاثني عشر يحتاج لها في بدء دوران العجلات على الخطين المعدنيين. وعندما تبدأ بالحركة فاربعة حصن تكفي لسحبه. كان القطار يحمل الناس والبضاعة الى الجنوب، الى بعد اكثر من مئة

ميل.

اقترح «الطويل النحيف» ان نصعد في القطار ليوفر لنا التعب، وافقته في الرأي وسألته كيف يمكننا ان نصل اليه في الوقت الذي مرّ من امامنا وهو على قمة سرعته.

كان لديه جواب على هذا السؤال أيضاً. اذ شرح لي ان الارض التي يسير عليها القطار تبدو للعيان على انها على مستوى واحد. الا ان هناك مناطق فيها ارتفاعات وانخفاضات فعند المنخفضات يفرمل الرجلان العجلات قبل الهبوط، اما في حالة المرتفعات فأن على الحصن ان تسحب، وهذا ما يجعل سرعتها تنخفض لتصبح عبارة عن سير بطيء حتى تصل الى اعلى المرتفع.

بدأنا السير وتتبع القضيبين المعدنيين بعيداً عن المدينة. كانا مصنوعان من الحديد وقد صقلا بسبب مرور العجلات المتواصل عليهما. كان وسيلة جيدة للسفر لكن الطويل النحيف لم يكن راضياً عنها اذ قال:

- «البخار، انه يرتفع الى الاعلى، وممكن ان يكون قوة دفع، لابد انكم رايتم كيف يدفع البخار غطاء القدر؟ فأذا استطاع المرء الحصول على كمية كبيرة من البخار، فممكن ان تدفع العربات من الخلف.. لكن لا.. لا يمكن ذلك»

ضحكنا مؤيدين قوله، فقال هنري:

- «سيكون الامر مثل انسان يحاول رفع نفسه من رباط حذائه»

هزّ «الطويل النحيف» راسه وقال:
ـ «لابد أن هناك طريقة ما، أنا متأكد»

كان ايجاد مكان لنقفز منـه على العلب (او القطـار كما يسميه «الطويل النحيف» أسهل مما كنت اتوقع. كانت درجة انحدار الارض لا تلاحظ بسهولة، وعند المرتفع كانت توجد قطعة خشبية لتشير الى مكان المنخفض والمرتفع. قريباً منها كان بعض الحشائش التي ممكن الاختباء بينها . انتظرنا زهاء نصف ساعة، عندهـا لاح لنا قطـار قادم من الجهـة الاخرى وسار بأتجاه على غير القضيبين اللذين كانا أمامنا. تساءلت عن سبب ذلك فوجدت ان في هـذه المنطقة يتقـابل قطاران فينتظر احدهما الاخر. بعدها يسير كل واحد بأتجاهه على القضيبين نفسهما. بعد مدة ظهر القطار الذي ننتظره ورأينا الحصن وهي تبطيء السرعة حتى بدأت تسير عـلى مهل. وعندما مرت العربات من امامنا قفزنا لنتسلق الى اعلى العربة ، وكان الطويل النحيف هو الذي قفز اولاً. وبعد ان وصلنا نحن الثلاثة فوق العربة توقف القطار.

ظننت ان ثقلنا هو السبب، لكن الطويل النحيف هزّ راسه وقال هامساً:
ـ «لقد وصل القطار الى اعلى المرتفع، والان ترتاح الحصن ولتشرب الماء ثم تستأنف الرحلة»

بعد خمس دقائق من التوقف بدأ القطار في السير. كان الى اعلى العربة قضبان حديدية تمكننا من الأمساك بها. كانت

حركة القطار مريحة، افضل من العربة التي تسير على طريق اعتيادي . كنا أنا وهنري ننظر الى الاراضي التي نمر بها. أما الطويل النحيف فكان يحدق في السماء. وكنت متأكداً انه ما يزال يتأمل فكرة استخدام البخار بدلاً من الحصن. وكان امراً مؤسفاً ان يملك افكاراً كثيرة عظيمة في ذهنه وفي الوقت نفسه لا يستطيع التمييز بين الافكار المضحكة والافكار المعقولة.

كان القطار يتوقف بين آونة واخرى ليغادره الناس ، وليفرغوا منه بعض الحمولات ، او ليصعد الناس، ويزود بالحمولات . كنا مستقلين على العربة وملزمين الصمت. آملين ان لا يرانا احد. فكرت ان القطار ربما يكون قد صنع منذ مدة طويلة، ربما قبل مجيء ذوي القوائم الثلاث ، شأنها شأن الاشياء الاخرى التي تبهر المرء كالساعة، والسفينة التي رآها «جاك»

رأينا في اثناء رحلتنا مركبات ثلاثية القوائم وقد جفلنا لكثرتهم في تلك المنطقة. ولابد أن عددهم الكبير هذا يسبب تلفاً في المحاصيل الزراعية اثناء سيرها على الارض.

قال الطويل النحيف ان الخسارة ليست فقط في المحاصيل الزراعية بل في الحيوانات . اذ تقتل عدداً كبيراً منهم تحت ارجلها المعدنية ، وكذلك الناس، فأنهم يموتون اذا لم يكونوا يقظين وسريعي الحركة ليتفادوا القوائم بسرعة.

عندما توقف القطار ، قبل المساء، رأينا مدينة عن بعد،

وكانت تبدو اكبر من تلك التي انطلق منهـا القطار . فقـال الطويل النحيف ربما تكون تلك المدينة هي آخر محطة للقطار. فكانت فرصة مناسبة ان تغادره قبل بدئه في السير . وعندما قفزنا بقينا نراقب القطار حتى غاب عن البصر.

ورحلنا بفضل القطار مسافة خمسين الى مئة ميل، بـأتجاه الجنوب الشرقي، وعندما نظرت الى الخـارطة وجـدت اننا قطعنا مسافة اقل من مئة ميل والا كنـا سنصل ـ كمـا هو موضح على الخارطة ـ الى خرائب مدن الشعوب القديمة.

لذلك اتفقنا على ان نسير بأتجاه الجنوب حتى نصل الى الخرائب.

مضينا بأتجاه الجنوب، كان الجو دافئاً، وعندما نظرت الى السماء وجدت بعض الغيوم تتجمع مهددة بالمطر. بحثا عن ملجأ قبل أن يحل الليل ويعيقنا عن الرحيل. لم نجد شيئاً مفيداً. بعدها وجدنا حفرة جافة . من حسن طالعنا، لم تمطر اثناء الليل، وعند الصباح كانت الغيوم ما تزال متجمعة من دون نذير بمطر. تناولنا وجبة طعام بسيطة من الخبز والجبن ثم اكملنا سيرنا. وصلنا الى تل قرب غابة، ففكرت أن نستخدم الغابة ملجأ لنا اذا رآنا احد. وصل «هنري» الى قمة التل قبلنا ووقف مـذهولاً ، اسرعت بشـوق لارى بماذا كـان يحدق، وعندما وصلت توقفت بتعجب وتساؤل.

ооо

رأينا خرائب مدينة كبيرة على بعد ميلين تقريباً. لم ار في حياتي

شيئاً في عظمة تلك الخرائب . كانت ممتدة على مسافة اميال عديدة على التلال والوديان. كانت الغابة قد غزت المدينـة، فكانت الاشجار منتشرة في كل مكان.

وقفنا في صمت نتأمل، ثم دمدم الطويل النحيف:

- «شعب بلدي هم الذين بنوها»

سأله هنري:

- «كم نسمة تعتقد كانت تسكن هنا؟ آلاف؟ مئيات الآلآف؟ مليون؟»

قلت لهما:

- «يجب أن نجد طريقاً حول المدينة فأنا لا أرى نهاية لها»

قال الطويل النحيف:

- «حولها؟ ولم لا من خلالها؟»

تذكرت حكاية «جاك» عن السفينة الهائلة التي رآها في «ونجستر» . لم يخطر ببالي ان بالامكان المرور بالمدينة. اذ لم يسبق لاحد ان تقرب من خرائب المدن الكبيرة او من اي شيء له علاقة بالماضي. وكانت تلك الافكار هي التي فرضها علينا التتويج، والمركبات الثلاثية القوائم. كان اقتراحه مخيفاً. قال هنري بصوت خافت:

- «هل تعتقد ان بأمكاننا المرور من خلالها.:

أجابه:

- «يمكننا ان نحاول هذا ليس صعباً جداً، اذ يمكننا العودة الى هنا»

سرنا داخل المدينة في صمت. كنت خائفاً في البداية وكان علي ان استجمع قوتي وشجاعتي لامضي في الطرقات. كانت العصافير تزقزق فوق الاشجار، تؤكد الصمت والعمق المخيف الذي كان امامنا، بعد مدة بدينا نهتم بما حولنا، فبدأنا نهمس لبعضنا ثم بدأنا نتحدث بحرية اكثر.

رأينا اشياءاً غريبة لم نرها من قبل، اولها علامات الموت، وكنا نتوقع رؤيتها. اذ شاهدنا بعض الهياكل العظيمة التي كان يكسوها اللحم في يوم من الايام. واول هيكل عظمي رأيناه كان ملقى على هيكل شيء ما تحته عجلات. توقف «الطويل النحيف» وحّدق بداخل الهيكل وقال:

ـ «يوجد مكان للجلوس في الداخل، انها نوع من أنواع العربات.»

قال هنري:

ـ «لا يمكن ذلك، كلا، فلا يوجد مكان لربط الحصن، مالم يكن قد تلفت أجزاء منها.»

ردّ عليه الطويل النحيف:

ـ «كلا، انها على طراز مختلف عن العربات الأخريات انظر!»

قلت له:

ـ «ربما هذا كوخ ليستريح فيه الناس من السير الطويل»

قال الطويل النحيف:

ـ «وما حاجة الكوخ للعجلات، كلا، انها عربات، لكن من دون حصن، أنا متأكد من ذلك»

قال هنري

- «ربما كانت تدفع بوساطة بخارك الذي يخرج من القـدر الكبير.»

حّدق «الطويل النجيف» بالهيكل وقال بجد:

- «ربما أنت على حق.»

كـانت بعض المباني متهـدمة بسبب الـزمن والاحـوال الجوية، وفي بعض الاماكن كان صف من الـدور المتهدمـة جميعاً واصبحت مسطحة وكأنها قـد ضربت بمطرقـة من السماء. وفي الوقت نفسه كان هناك عدد كبير منها لم يهدم كلياً. تجرأنا على الدخول في واحد من المباني. كـان محلاً كبيراً، يحتوي على علب في كل مكان، بعضها على شكل اكوام على الارض، وبعضهاً موضوع على الرفوف، لكن معضمها كان ملقى على الارض بصورة عشوائيـة. التقطت واحدة منها وكان قد لصقت عليها ورقة مرسوم عليها خوخ. ورأيت عـلى العلب الاخرى صـوراً لفواكـه ولخضروات ولصحون الحساء ادركت ان العلب تحتوي على الطعام.

كان شيئاً معقولاً ان يجلب للمدينة غذاء معبأ، فعددهم كان كبيراً جداً ولا توجد أراض زراعيةً في المدينة. كـانت والـدتي تفعل ذلـك ايضاً عنـدما تحتفظ ببعض اصنـاف الخضروات الصيفية للشتاء. القيت نظرة على العلب الأخرى فوجدتها متصدئة وقد جَفّ ما بداخلها.

كان في المدينة آلاف المحلات، تفحصنا الكثير منها. وكانت

محتوياتها تدهشنـا. أحد المحـلات كان يضم مـلابس من موديلات مختلفة، كان بعضها معلقاً بشكل صفوف طويلة جداً، وبعضها وجدناه في صناديق كبيرة، ووجدنا في أحـد الصناديق عدداً لا يحصى من الأحذية الجلدية. وفي المحلات الأخرى وجدنا آلات موسيقية، بعضها كان مألـوفاً لـدينا والبعض الآخر غريباً. وجدنا أيضاً هياكل نساء مصنوعة من مادة غريبة، وكان بعضها يرتدي ملابس. وجدنا أيضاً قناني كثيرة فقال «الطويل النحيف» انها تحتوي عـلى نبيذ. كسر غطاء احدى القناني وتذوقنا النبيذ وكان مُراً جداً، فقد أُفسد بسبب الزمن. أخذنا معنا بعض الأشياء التي نحتاجها مثل، سكين، وفأس، وشحوم، وقارورة لحمل الماء واشياء اخرى.

أما المحل الذي أدهشني حقاً، فكان صغيراً ويقـع بين محلين كبيرين. وجدت امامه حاجزاً معدنيـاً كبيراً، وكـان زجاج المحل مكسوراً. نظرت الى الداخل وكان كأنـه مغارة علاء الدين، وجدت فيه خواتم من الذهب، والماس، وبعضها كان يحتوي على أحجار مختلفـة، هذا فضـلاً عن الأساور الذهب والمصوغات الأخرى، ووجدت أيضاً ساعات يدوية.

التقطت احدى الساعات، كانت مصنـوعة من الـذهب ايضاً، وبدلاً من الحزام الجلدي كـانت تحتوي سـوار من الذهب والذي يتمدّد عندما يدخل المرء يديه.

كان حجمها كبيراً على معصمي فدفعتها حتى استقرت على العضد. كان «هنري» و «الطويل النحيف» في مكان آخر

يتفحصان ماكنة ما، فكرت في مناداتهم، بعدها عـدلت عن ذلك.

عدلت عن مناداتهما ليس لأني لا اريدهما ان يحصلا على ساعات مثلي فقط، بل لأني تذكرت نزاعي مع «هنري» بسبب ساعة والدي اليدوية عندما ساعدني «جاك» واخذها منه. اما السبب الآخـر فكان عـدم حبي لـ «هنـري» ، والمخـاطـر والجازفات التي واجهتنا لم تقلل كثيـراً من عدم حبي لـه. وعندما انضم الينا «الطويل النحيف» كنت اتحدث اليه كثيراً وكان يتجاوب معي، اما «هنري» فكان خارج الأمور.

أما اليوم وخاصة عندما دخلنـا للمدينـة لاحظت بعض التغيير. كان «هنري» يتحدث الى «الطويل النحيف» اكثر من السابق، وكان «الطويل النحيف» يوجه حديثه وتعليقاته الى «هنري» الى الحد الذي اصبحت انا، بعيداً عن الأمور، لهذا وجدت ذلك المحل وحدي، اذ كـانا في مكـان آخر، كـلا، لن اناديهما.

بعد مدة توقفنا عن تفحص المحلات، لأن دافع الفضول الذي نملكه قد تشبع ولأن قد مضى علينا بضع ساعـات في المدينة ولم نجد أثراً على نهايتها. ولولا البوصلة التي كانت بحوزتنا لضللنا الطريق. كنا نتجه الى الجنوب، وكان علينا أن نستعجل لأننا قد ضيعنا وقتاً طويلاً.

وصلنا الى شارع عريض، وعلى جانبيه رأينا بنايات عالية جداً. توقفنا لنتناول وجبـة طعام، فجلسنـا لنمضغ اللحم

والبسكويت الذي اعطانا اياه الكابتن «كورتس».

وبعد تناول الطعام ذهب «الطويل النحيف» ليتجول، وتبعه «هنري»، تمدّدت على الرصيف وحدّقت في السماء الرمادية. وعندما سمعت نداءهما لم ارد عليهما اول مرة.

ناداني «الطويل النحيف» مرة اخرى وكانت الأثارة واضحة على نبرة صوته، فأيقنت انه قد وجد شيئاً ما.

كانت حفرة كبيرة، محاطة بقضبان حديدية من ثلاثة جوانب. اما الجانب الرابع فكان فيه سلالم تقود الى الأسفل.

وعند بداية السلالم رأيت قطعة معدنية مكتوب عليها «مترو». قال «الطويل النحيف»: «إن السلم عريض جداً بحيث يستطيع عشرة اشخاص النزول جنباً الى جنب. لكن الى أين يؤدي هذا السلم؟

قلت له:

ـ «ليس مهماً، اذا لم نسترح فمن الأفضل أن نبدأ الرحيل.»

قال «الطويل النحيف»

ـ «اذا تمكنت من رؤية.. لماذا بُني هذا النفق الكبير؟»

قلت له:

ـ «وما يهمك في ذلك، لن تتمكن من رؤية اي شيء في داخله بسبب الظلام»

قال هنري:

ـ «لدينا شموع».

فأجبته بغضب:
- «ليس لدينا متسع من الوقت، لا نريد ان نقضي الليلة هنا»
تجاهلا كلامي. وقال «هنري» «للطويل النحيف».
- «يمكننا النزول ونرى ما هناك»
وافقه في الرأي، فقلت لهما:
- «هذا غباء»
فأجابني هنري:
- «لست مضطراً للنزول معنا، ان لم تكن ترغب بذلك، يمكنك ان تبقى مكانك لترتاح قليلاً»
قال جملته بلا مبالاة، وهو يفتش عن الشموع. وكان عليه أن يشعلها، وكنت انا الوحيد الذي يمتلك الكبريت.
كانا مصّرين على النزول وقررت ان استسلم لهما فقلت:
- «سأذهب معكما على الرغم من اني ما أزال اعتقد أن لا جدوى من ذلك.»

○○○

كانت السلالم تؤدي الى كهف كبير جداً، وكان ذلك المكان أقل تعرّضاً للظروف الجوية والتهدم من المدينة. وفي الداخل رأينا صندوقاً فيه شبابيك زجاجية، متصدأ لكنه ليس متهدّماً.

ووجدنا ممّراً يؤدي الى طريق آخر وسلالم تؤدي الى الاسفل. والى أسفل السلالم وجدنا طريقاً يتجه نحو اليمين.

تلاشى اهتمامي بالمكان وكل الذي كنت أتمناه هو الخروج منه الى ضوء النهار. كنت اوشك أن أقترح ذلـك لكني تذكـرت اصرارهما. ولاحظت ان اهتمام «هنري» في المكان قد تلاشى، فكنت راضياً ان اراه نادماً.

سرنا في نفق صغير، والى نهايته وجدنا باباً حديديـة ثقيلة، فتحناها ودخلنا الى المكان ودهشنا من الذي رايناه . كان المكان عبارة عن نفق كبير جداً، وكان السقف مقّوساً، وعالياً لم يصل اليه ضوء الشمعة. والذي أدهشنا حقاً كان الشيء الموجود في النفق، والذي ظننت في باديء الأمر انه منزل .كان ضيقاً وطويلاً مصنوعاً من الزجاج والمعدن فتسـاءلت من الذي يسكن داخل الأرض . لاحظت انه يحتوي على عجلات حديدية تقف على قضيبين معدنيين. كان أشبه بالقطار.

لكن الى أين يرحل هذا؟ هل ممكن أن يقطع مسافة مئة ميل ـ مثل القطار ـ وتحت الأرض؟ ربما يؤدي الى مـدينة اخرى مدفونة. كان اعجوبة، واعظم مما موجود في المدينة التي كانت فوقنا . سرنا الى الامام، ووجدنا ان العربة الطويلة متصلة بست عربات اخريات، وآخر عربة كانت ذات شباك امامي، وكان بداخلها مقعد، وعتلات. وآلات صغيرة غريبة. والى امام العربات رأينا فتحة نفق آخر أصغر من الذي كنا فيه. قلت لهما:

ـ «لا يوجد مكان لربط الحصن. ومن الـذي تجره الحصن تحت الأرض»

قال «هنري» «للطويل النحيف»
ـ «لابد انهم كانوا يستخدمون بخارك»
كان «الطويل النحيف» يحدق بجشع على الآلات الغريبة ثم قال:
ـ «ربما استخدموا شيئاً أفضل من البخار»
عدنا نتفحص العربات، كان بعض منها ذا فتحات في جانبها فأساطعنا الدخول فيها. وجدنا في الداخل مقاعد واشياءاً اخرى مبعثرة. ووجدت اكواماً من المعلبات كاللاتي رأيناها في المحلات، لكنها كانت غير صدئة، اذ كان الهواء داخل النفق بارداً وجافاً. وجدنا اشياءاً اخرى لم أفهمها. اذ وجدنا اشياءاً خشبية، تفحصت واحدة منها فوجدت انها تنتهي بأسطوانة حديدية، وتحتوي على شيء يشبه نصف دائرة معدنية داخلها اصبع، وتحرك عندما ضغط عليه، لكن لم يحدث شيء:
قال الطويل النحيف:
ـ «اذن، هذه العربات تحمل بضائع وناساً، اذ يوجد مقاعد للجلوس:»
سأله هنري:
ـ«وما هذا؟»
كان صندوقاً خشبياً مليئاً بأشياء تشبه بيضة كبيرة معدنية، وكانت البيضة بحجم بيضة الوز. التقط هنري واحدة وتفحصها. كانت مصنوعة من الحديد، ذات سطح

مقسم الى مربعات، وفيها حلقة معدنية سحبها «هنري»
فأنسحب في يديه قال «الطويل النحيف».
ـ «ايمكنني ان القي نظرة عليها؟»
سلمها «هنري» بطريقة عشوائية فسقطت على الارض قبل أن يمسك بها «الطويل النحيف . تدحرجت حتى سقطت خارج العربة واستقرت تحتها. كان «هنري» يوشك ان يتبعها عندما أمسك به «الطويل النحيف» من ذراعه وقال له:
ـ «دعها، يوجد المزيد منها»
انحنى بأتجاه الصندوق، وسمعنا شيئاً مريعاً: سمعنا صوتاً هائلاً تحت أقدامنا، وارتجفت العربة من شدة العنف، وكان عليّ ان امسك بشيء ما لأتفادى الارتطام بالأرض. وكان صدى الضربة يدوّي في النفق كأنه صوت طرق متواصل يتباعد. قال هنري مرتجفاً:
ـ «ما كان ذلك الصوت؟»
لم يكن الأمر يحتاج للتفسير. فقلت:
ـ «لولم تتدحرج البيضة تحت العربة..»
قاطعني الطويل النحيف قائلاً:
ـ «انها أقوى من الألعاب النارية. لكن لأي غرض كانت تستخدمها الشعوب القدماء؟»
التقط «الطويل النحيف» واحدة اخرى. فقال هنري:
ـ «لوكنت مكانك لم أعبث بها»
وافقته في رأيه لكن بصمت، أعطى «الطويل النحيف»

الشمعة التي كان ممسكاً بها لـ «هنري» ليتمكن من تفحص البيضة جيداً.

قال هنري:

ـ «اذا انفجرت....»

قاطعه الطويل النحيف:

ـ «اذ ما لا [illegible]، اذ لم تنفجر من قبل عندما نقلت الى هنا. ولا اعتقد ان اللمس يسبب شيئاً فأنت سحبت الحلقة اولاً، ثم سقطت وبعدها بقليل...»

وقبل أن أدرك ما كان يفعل، سحب الحلقة من البيضة فأنفصلت عنها بسهولة، صرخنا أنا وهنري، لكنه تجاهلنا، سار الى فتحة العربة ورمى البيضة تحت العربة.

وهذه المرة، سمعنا، فضلاً عن صوت الأنفجار، صوت تهشم الزجاج، وهبت ريح فأنطفأت شمعتي. قلت له بغضب:

ـ «كان غباء منك أن تفعل ذلك»

اجابني:

ـ «لقد حمتنا ارضية العربة. ثم انها ليست مجازفة خطرة. على ما أعتقد»

ـ «كان من الممكن ان نجرح بسبب الزجاج المتطاير.»

ـ «لا أعتقد ذلك»

كان يجب ان ادرك من قبل ان «الطويل النحيف» ذو تفكير منطقي ما دام فضوله لا يثيره شيئاً. اذ عندما يهتم بشيء ما، فلا يفكر الا بأرضاء فضوله

قال له هنري:
ـ «لو كنت مكانك لما فعلت ذلك»
كان واضحاً على «هنري» انه يقاسمني الشعور المخيف من التجربة . قال «الطويل النحيف»
ـ «الان نحن نعرف كيف نستخدمها . لقد حسبت الى الرقم سبعة بعدما سحبت الحلقة حتى انفجرت»
كان شعوراً لطيفاً ان يقول «نحن» ، اذ شعرت اني من ضمن المجموعة مرة اخرى على الرغم من ان الطرف المقابل في المجموعة هو «هنري» . قلت للطويل النحيف:
ـ «حسن انت تعرف كيف تستخدمها. فما نفع ذلك؟
لم يزد شيئاً . كان قد وجد حقيبة جلدية خضراء في احد المحلات. وبدأ يأخذ البيض من الصندوق ويضعه في الحقيبة، فقلت له:
ـ« هل ستأخذها معك
هزّ راسه وقال:
ـ ربما سنحتاج لها .
ـ ولاي غرض ؟
ـ لا اعرف لكن ربما سنحتاج لها في شيء ما .
فقلت له بصراحة :
ـ «لايمكنك فعل ذلك ، لن نكون في امان مع البيض»
فرد باختصار :
ـ «ليست خطرة مالم تسحب الحلقة» .

وضـع في حقيبتـه اربـع بيضـات . نظـرت الى هنـري ليساندني لكنه قال وهو يلتقط واحدة ويحاول تخمين وزنها :

ـ «انها ليست ثقيلة سآخذ اثنين فقط» .

لم اعرف اذا قال ذلك عن اقتناع او لمجـرد اغاضتي . فكرت بمرارة وشعرت اني خارج المجموعة مرة اخرى .

عدنا ادراجنا ، وكنت سعيداً لأرىٰ السماء على الرغم من انها كانت ملبدة بالغيوم الرمادية . بعد مدة من السير وصلنا الى نهر يجري بسرعة بين ضفتين عاليتين . وجدنا عدة جسور مشيدة فوقه ، وكانت اما متهدمة جزئياً او كلياً فلم نجد طريقاً غير السير بمحاذاة النهر وباتجاه الشرق .

مررنا باربعة جسور غير صالحة للعبور . بعدها وصلنا الى منطقة تشعب النهر فيها الى جزئين . ادركت اذا استمرينا في السير بمحاذاة النهر وباتجاه الشرق فيجب ان نجد جسرين صـالحين للعبـور على الفـرعـين ، وذلـك سيضـاعف من الصعوبة . لذلك كان الطريق الافضل هو ان نعود ادراجنا ونسير بالاتجاه المعاكس لعلنا نجد جسراً هناك . كان هنري ضد فكرة العودة ، اما الطويل النحيف فأيدني بذلك . ثم قررا الاستمرار في السير بالاتجاه نفسه ، ولم يكن بمقدوري فعل شيء سوى السير خلفهما .

لم تتلاشى مخاوفي من عدم جدوى السير في ذلك الطريق حتى بعد ان وجدنا جسراً يمكننا العبور عليه . كان متهدماً في

بعض الاماكن وكانت فيه حفرة يجب ان نقفز من فوقها .
وجدنا في الضفة الاخرى من النهر بعض الاشجار والمباني المكثفة . وكانت المباني كبيرة وعظيمة تبهر البصر .

رأينا برجين عاليين ، احدهما متهدماً بعض الشيء . وكان على واجهتهما اشكال منحوتة على الصخر . وعلى السطح والزوايا برزت تماثيل منحوتة على الصخر ايضاً لغول الحيوانات اخرى . ادركت بعد ذلك انها كانت كنيسة كبيرة ، اكبر من اكبر كنيسة في «ونجستر» والتي كنت اعتقد انها اكبر بناية في العالم . كانت باب الكنيسة مفتوحة ، وكانت اجزاء من السقف متهدمة . لم ندخل فيها لنتفحصها .

اكتشفنا بعد مدة اننا لم نعبر الى الضفة الاخرى من النهر بل عبرنا الى جزيرة . فالنهر الذي تفرع الى فرعين في جهة الغرب ، تلاقى فرعاه في جهة الشرق . لذلك كان علينا ان نعود من حيث اتينا شعرت بالارتياح لارى «هنري» آسفاً لانه لم يأخذ باقتراحي وكنت تعباً جداً لاعود من الطريق نفسه .
سألني الطويل النحيف :
ـ «ماذا ترتدي في يديك» ؟

لاحظت ان ساعتي قد نزلت حتى استقرت على معصمي من دون ان الاحظ ذلك . نظر اليها «هنري» بحسد لكنه لم يقل شيئاً . اما الطويل النحيف فلم يعرها اهتماماً بالغاً .

قال :

ـ «لقد رايت ساعات جدارية ،لكني لم ار في حياتي مثل هذه ، كيف تعمل هذه الساعة» ؟

اجبته :

ـ «عندما تدير الزر الذي على جانبها لكني لم ادره لأنها قديمة فلا اظن انها تعمل» .

فقال لي

ـ «لكن العقرب يدور»

لم اصدق ذلك . نظرت الى الساعة فرايت عقربي الساعات والدقائق ، وعقربا ثالثاً كان يدور . وضعتها على اذني فسمعت دقاتها . ثم قرات كلمة مكتوبة على الساعة وهي «اوتوماتيكية» فكانت تلك الساعة اعجوبة اخرى من عجائب القدماء» .

نظر الطويل النحيف اليها وقال :

ـ «تلك العقارب عمرها مئات السنين وما تزال تعمل ! اي حرفيين كانوا اولئك القدماء» .

●●●

اخيرا عبرنا الى الضفة الاخرى من النهر . سرنا مسافة نصف ميل ولم نجد طريقاً للخروج من المدينة . سحرتنا سعتها في باديء الامر ،ثم اثارت فضولنا واعجابنا ،واخيراً اصبحت متعبة . مررنا بعدة محلات كبيرة ، اكبر من

الكنيسة وكانت عبارة عن سلسلة من المحلات متكونة من عدة طوابق. ولم يهتم احد منا بالقاء نظرة عليها . رأينا انفـاقاً اخرى تحمل علامة «مترو» وتوصـل الطويـل النحيف الى الاستنتاج ان الانفاق هي الاماكن التي يذهب اليها الناس لركوب ذلك الشيء الشبيه بالقطار ، وكان استنتاجه معقولاً .

استمرينا في السير ، وعند الغروب توقفنا لنرتاح . تناولنا وجبة عشاء خفيفة ، اذ بدأ الطعام ينفد ، ولم نجد وسيلة للحصول على المزيد . وكان من الواضح اننا سنقضي الليلة في المدينة . لم نرغب في المبيت في احدى البنايات ، لكن نبـاح الكـلاب البعيدة غـيرت افكارنـا ، فكان علينـا ان نتجنب الطرقات والكلاب الوحشية التي تهاجم الناس عندما تكون جائعة ، وبالطبع لم نعرف اذا كانت جائعة ام لا .

دخلنا الى احدى البنايات وصعدنا الى الطابق الاول ، كنا تعبـين ونوشـك ان ننهار . وعنـدما سرنـا هب التراب من الارض ، وجدنا غرفة لم ينكسر زجاج شبابيكهـا ، وكانت بوضع جيد . كانت الستائر واقمشة الاثاث قد فتر لونها وكان قماش الاثاث يبدو وكأن احداً ما قد غضه ، فكان يحوي على فتحات كثيرة لكن الاثاث كان مريحاً . وجدت مزهرية كبيرة ذات غطاء ، وكانت صور زهور منقوشة عليها ، ازلت الغطاء فوجدتها مملوءة بزهور ذابلة وكانت رائحتهـا كأنهـا شبح صيف قادم من الماضي . ووجدنا ايضاً «بيانو» كبيراً وكان

تصميمه غريباً عن المألوف لدينا . ورأينا فوقه اطاراً لصورة ما . كانت صورة بالاسود والابيض لأملأة ما . وتساءلت اذا كانت صاحبة الصورة هي صاحبة ذلك المكان . كانت جميلة جداً ذات عينين غامقتين واسعتين وذات ابتسامة ساحرة .

استيقظت في الليل ، كان ضوء القمر متسللاً الى الحجرة ، وكان بعض من اشعاعه على البيانو . تخيلت المرأة الحسناء الرشيقة القوام وهي تعزف على البيانو وانا استمع لها ، نمت مرة اخرى ولم احلم . بها لكني حلمت اني عدت الى القرية ، الى المختلى وكنت مع جاك في الاوقات التي لم اكن افكر فيه بالتتويج والمركبات الثلاثية القوائم ، ولا في السفر ابعد من «ونجستر» .

●●●

وفي الصباح ، كانت السماء ملبدة بالغيوم اكثر من اليوم المنصرم ، بعدها بدأت ذرات المطر تتساقط . كنا في شوق عارم للخروج من المدينة لكنه كان امراً مستحيلاً في تلك الظروف الجوية . ما تبقى لنا من الطعام كان قطعة من الجبن ، وقطعة من اللحم ، وبضعة بسكويتات . تقاسما الجبن وما تبقى كان يكفي لوجبة طعام واحدة ، وبعدها كان علينا ان نعاني من الجوع .

وجد «هنري» شطرنجاً ، ولعبنا عدة مرات ، كان الطويل

النحيف يربح بسهولة ، تحديته في اللعب فتمكنة منه آخر مرة . اخيراً لعبت مع «هنري» ، كنت اتوقع ان اغلب لكني خسرت بعد عشرين نقلة . بدأت اشعر بالضجر بسبب خسارتي ، والجو الممطر ، والجوع . رفضت اللعب مرة اخرى ووقفت عند احد الشبابيك ، وفرحت عندما رأيت السماء تصفو من الغيوم . وفي غضون ربع ساعة توقف المطر واصبح بامكاننا مواصلة الرحيل .

كانت الأزقة التي سرنا فيها كئيبة ، تحتوي على برك من الماء ، وكانت اوراق الاشجار تنقط من المطر فابتللنا جميعاً . وبعد مدة بدأت اشعة الشمس تلوح بين الغيوم الباقية ، وسمعنا زقزقة العصافير وكأنها قد تيقظت ، وبدأت تملأ الجو بالمرح والاغاريد . كان هنري والطويل النحيف يتحدثان مع بعضهما اكثر من قبل . كنت اشعر بالتعب ، وكنت ارتجفت ، واشعر بثقل في رأسي . تمنيت ان لا اصاب بالبرد .

تناولنا آخر وجبة طعام لنا في مكان كانت الاشجار الكثيفة امامنا ، وبينها مبان غير متهدمة . رأيت بين الاشجار احجاراً كبيرة ، بعضها واقف وبعضها ملقى على الارض . تمكنت من رؤية بعض الكلمات محفورة على حجارة كبيرة . شرح لنا «الطويل النحيف» ما محفور عليها وكان :

هنا ترقد

«مارييل لويس فاندركورت»

١٣ سنة ، توفيت في ٥ شباط ١٩٦٦

كان عمر الفتاة يناهز عمري ، ودفنت هناك عندما كانت المدينة ما تزال على قيد الحياة . كانت الغابة مليئة بالمقابر ، وكانت مساحتها اكبر من قريتي عدة مرات .

تمكنا من مغادرة المدينة ، عند العصر ، وكان التغيير واضحاً ، اذ بدأت المباني تقل وبدأت الاشجار تزداد حتى تحولت الاراضي الى مزرعة ذرة . كنت مرتاحاً لأجد نفسي في اماكن ممتدة على مد البصر ، وعلى اراضي متحضرة . وشعرت بضرورة اخذ الحذر كي لا يرانا احد خصوصاً بعد ان شاهدنا عن بعد مركبتين ثلاثية القوائم .

●●●

رحلنا بأتجاه الجنوب ، وبدأت الغيوم تتجمع في السماء مرة اخرى . وجدنا في طريقنا حقلاً للبطاطا ، ولم نجد خشباً جافاً لنوقده ونطهو البطاطا . اكلها هنري والطويل النحيف من دون طهو لكني لم استطع ذلك ، ولم اكن اشتهي الطعام اذ كانت صحتي متدهورة ، ورأسي يؤلمني . قضينا الليلة في خرائب بعيدة عن اي دور . كان السقف متهدماً من طرف واحد ، كان متحركاً ومصنوعاً من مادة رمادية اللون .

كان نومي ثقيلاً ومتقطعاً ، تتخلله الكوابيس . شعرت في اليوم التالي بالتعب اكثر من قبل . يبدو ان مظهري كان

مضحكاً اذ سألني «هنري» اذا كنت مريضاً .لم يقل الطويل النحيف شيئاً ربما لأنه لم يلاحظ شيئاً .كان يهتم بالافكار لا بالاشخاص .

كان يوماً متعباً بالنسبة لي . وبدأت حالتي تزداد سوءاً بمرور الوقت . وعزمت على الا اجعلهما يلاحظان ذلك لسببين . اولاً ، لاني لا احب الشفقة والعطف من الاخرين ، وثانياً لاني لم اكن على ود معهما . كنت راضياً بشعوري بالمرض ، والمعاناة وحدي من دون البوح بها ، واعرف ان تصرفي كان طفولياً .

عبثاً بحث «هنري» والطويل النحيف» على طعام اما انا فكنت لا أشعر بشهية للاكل . وصلنا الى نهر يجري بالاتجاه الجنوبي الشرقي والذي كان علينا ان نسير بمحاذاته حسب الخريطة . قضى «هنري» نصف ساعة وهو يحاول ان يمسك بسمكة من النهر من دون جدوى . وكنت سعيداً بتلك الاستراحة حيث استلقيت على الارض اراقب الغيوم في السماء .

وصلنا قبل حلول المساء الى بستان كان فيه صفوف من اشجار الكرز والخوخ والتفاح .كانت الفاكهة غير ناضجة ، والى مسافة منها رأينا اشجار خوخ اصفر وكرز اسود واحمر . كانت دار البستاني قريبة منها فلم نتمكن من الذهاب هناك ، اذ كان من السهولة ان يرانا من بداخل

الدار . اما عند حلول الليل فالامر سيكون مختلفاً .

كان «هنري» يود البقاء في ذلك المكان على امل الحصول على الطعام من الدار ، اما الطويل النحيف فكان يصر على الرحيل آملاً ان يجد شيئاً افضل في غضون الساعتين المتبقيتين من النهار . كنت اشعر بالمرض فلم اجد متعة في خلافهما .

تمددت على الارض وغرقت في نوم عميق . حاولا ايقاظي بعد مدة لكني لم اعرهما انتباهي . لم ادرك كم استغرق الوقت حتى عادا ، شعرت انهما يحاولان ايقاظي مرة اخرى لاتناول الجبن الذي تمكن «الطويل النحيف» من سرقته من الدار . لم استطع ان اتناول شيئاً او حتى محاولة ذلك ، ولاول مرة ادركا كم كنت مريضاً . همسا واحدهما للاخر . ثم حملاني الى مكان اخر .

ادركت بعد ذلك انهما حملاني الى كوخ في نهاية البستان لايستعمله احد . اذ شعرا انه من الافضل حملي الى هناك لتفادي المطر اذا امطرت . وفعلاً امطرت السماء اثناء الليل . كنت غائباً عن الوعي فشعرت عندما حملاني وعندما استلقيت على الارض في ذلك الكوخ . كانت الكوابيس اكثر من قبل حتى اني صرخت اثناء النوم .

الشيء الاخر الذي اذكره هو سماعي نباح كلب كان قريباً مني ، ثم رأيت باب الكوخ تفتح بقوة وسقطت اشعة الشمس

الحـارة على وجهي ورأيت رجـلاً امـامي . سمعت ايضـاً ضوضاء واصواتاً عالية بلغة غريبة . حاولت ان اوقف على قدمي لكني سقطت .

عـدت الى الوعي بعـد ذلك ، وشعـرت اني مستلق على شرشف بارد وفراش ناعم . ورأيت امامي فتاة ذات عينين كبيرتين غامقتين ترتدي ثوباً ازرق . نظرت اليها والى المكان في تساؤل . كان السقف أبيض مزخرفاً على النسق العربي . وكانت الجدران من الخشب الغـامق . ورأيت قماشـاً من المخمل القرمزي حول السريـر ، لم ارَ في حياتي مثـل ذلك الترف .

الفصل السادس

«القصر ذو القلعة الحمراء»



ادرك «هنري» و«الطويل النحِيف» في الصباح ، وبعد انهياري بأني لن استطع الرحيل ، بالطبع كان بأمكانهما مواصلة السفر من غيري لكنهما لم يفعلا ذلك ، كان امامهما خياران : اما سحلي بعيداً عن البستان ، او المكوث في الكوخ

املين ان لا يرانا احد . بالنسبة للخيار الاول لم يجدا ملجأ آخر على مد البصر ، وكان الجو ينذر بالمطر . قـررا المكوث حيث هما إذ بدا لهما ان الكوخ لايستخدم من قبل احد . تسللا في الصباح الباكر لاحضار المزيد من الخوخ والكرز وعادا ليتناولا في الكوخ .

جاء الرجال والكلاب بعد زهاء ساعة او ساعتين لم يتأكدا من ان مجيء هؤلاء كان بمحض الصدفة ، او ان احداً ما قد رآهما ، او لان الطويل النحيف قد ترك اثراً خلفه عندما سرق الجبن . او لان الرجال كانوا يقومون بـالتفتيش اليومي . المهم انهم كانوا على عتبة الباب ، وكان معهم كلب قبيح شرس وكبير الحجم كأنه حمار . كانت انيابه الطويلة تظهر عندما يزمجر . فلم يجدا امامهما سوى الاستسلام .

كان «الطويل النحيف» قد وضع خطة في حالات الطوارىء مثل هذه للتغلب على المصاعب . والخطة هي انا وهنري ابنا عمه ونعاني من الصم والبكم . كان علينا ان لا نتفوه بكلمة وندعي بأننا لا نسمع شيئاً . وهذا فعلاً ما قمت به لاني كنت فاقد الوعي . كانت الغاية من خطته هي تقليل الشكوك حول امرنا،وان سجنونا فانهم لن يشددوا الحـراسة علينـا ، وبذلك نحصل على فرصة للهرب . لكني بالطبع كنت في حالة لا تسمح لي بالهروب من اي شيء . وبعد ذلـك اخذت الامـور مساراً مختلفاً عما خططنا له .

بعد مدة توقفنا عن تفحص المحلات، لأن دافع الفضول الذي نملكه قد تشبع ولأن قد مضى علينا بضع ساعات في المدينة ولم نجد أثراً على نهايتها. ولولا البوصلة التي كانت بحوزتنا لضللنا الطريق. كنا نتجه الى الجنوب، وكان علينا أن نستعجل لأننا قد ضيعنا وقتاً طويلاً.

وصلنا الى شارع عريض، وعلى جانبيه رأينا بنايات عالية جداً. توقفنا لنتناول وجبة طعام، فجلسنا لنمضغ اللحم والبسكويت الذي اعطانا اياه الكابتن «كورتس».

وبعد تناول الطعام ذهب «الطويل النحيف» ليتجول، وتبعه «هنري»، تمدّدت على الرصيف وحدّقت في السماء الرمادية. وعندما سمعت نداءهما لم ارد عليهما اول مرة.

ناداني «الطويل النحيف» مرة اخرى وكانت الأثارة واضحة على نبرة صوته، فأيقنت انه قد وجد شيئاً ما.

كانت حفرة كبيرة، محاطة بقضبان حديدية من ثلاثة جوانب. اما الجانب الرابع فكان فيه سلالم تقود الى الأسفل.

وعند بداية السلالم رأيت قطعة معدنية مكتوب عليها «مترو» . قال «الطويل النحيف» : «إن السلم عريض جداً بحيث يستطيع عشرة اشخاص النزول جنباً الى جنب. لكن الى أين يؤدي هذا السلم؟

قلت له:

ـ «ليس مهماً، اذا لم نسترح فمن الأفضل أن نبدأ الرحيل.»

قال «الطويل النحيف»

ـ «اذا تمكنت من رؤية.. لماذا بُني هذا النفق الكبير؟»
قلت له:
ـ «وما يهمك في ذلك، لن تتمكن من رؤية اي شيء في داخله بسبب الظلام»
قال هنري:
ـ «لدينا شموع».
فأجبته بغضب:
ـ «ليس لدينا متسع من الوقت، لا نريد ان نقضي الليلة هنا»
تجاهلا كلامي. وقال «هنري» «للطويل النحيف».
ـ «يمكننا النزول ونرى ما هناك»
وافقه في الرأي، فقلت لهما:
ـ «هذا غباء»
فأجابني هنري:
ـ «لست مضطراً للنزول معنا، ان لم تكن ترغب بذلك، يمكنك ان تبقى مكانك لترتاح قليلاً»
قال جملته بلا مبالاة، وهو يفتش عن الشموع. وكان عليه أن يشعلها ، وكنت انا الوحيد الذي يمتلك الكبريت.
كانا مصّرين على النزول وقررت ان استسلم لهما فقلت:
ـ «سأذهب معكما على الرغم من اني ما أزال اعتقد أن لا جدوى من ذلك.»

○ ○ ○

كانت السلالم تؤدي الى كهف كبير جداً، وكان ذلك المكان

أقل تعرّضاً للظروف الجوية والتهدم من المدينة . وفي الداخل رأينا صندوقاً فيه شبابيك زجاجية، متصدعاً لكنه ليس متهدّماً.

ووجدنا ممّراً يؤدي الى طريق آخر وسلالم تؤدي الى الاسفل. والى أسفل السلالم وجدنا طريقاً يتجه نحو اليمين. تلاشى اهتمامي بالمكان وكل الذي كنت أتمناه هو الخروج منه الى ضوء النهار. كنت اوشك أن أقترح ذلك لكني تذكرت اصرارهما. ولاحظت ان اهتمام «هنري» في المكان قد تلاشى، فكنت راضياً ان اراه نادماً.

سرنا في نفق صغير، والى نهايته وجدنا باباً حديدية ثقيلة، فتحناها ودخلنا الى المكان ودهشنا من الذي رايناه . كان المكان عبارة عن نفق كبير جداً، وكان السقف مقّوساً، وعالياً لم يصل اليه ضوء الشمعة. والذي أدهشنا حقاً كان الشيء الموجود في النفق، والذي ظننت في بادىء الأمر انه منزل .كان ضيقاً وطويلاً مصنوعاً من الزجاج والمعدن فتساءلت من الذي يسكن داخل الأرض . لاحظت انه يحتوي على عجلات حديدية تقف على قضيبين معدنيين. كان أشبه بالقطار.

لكن الى أين يرحل هذا؟ هل ممكن أن يقطع مسافة مئة ميل ـ مثل القطار ـ وتحت الأرض؟ ربما يؤدي الى مدينة اخرى مدفونة. كان اعجوبة، واعظم مما موجود في المدينة التي كانت فوقنا . سرنا الى الامام، ووجدنا ان العربة الطويلة متصلة بست عربات اخريات، وآخر عربة كانت ذات شباك

امامي، وكان بداخلها مقعد، وعتلات. وآلات صغيرة غريبة.
والى امام العربات رأينا فتحة نفق آخر أصغر من الذي كنا فيه. قلت لهما:
- «لا يوجد مكان لربط الحصن. ومن الـذي تجره الحصن تحت الأرض»
قال «هنري» «للطويل النحيف»
- «لابد انهم كانوا يستخدمون بخارك»
كان «الطويل النحيف» يحدق بجشع على الآلات الغريبة ثم قال:
- «ربما استخدموا شيئاً أفضل من البخار»
عدنا نتفحص العربات، كان بعض منها ذا فتحات في جانبها فأساطعنا الدخول فيها. وجدنا في الداخل مقاعد واشيـاءاً اخرى مبعثرة. ووجدت اكواماً من المعلبات كاللاتي رأيناها في المحلات، لكنها كانت غير صدئة، اذ كان الهواء داخل النفق بارداً وجافاً. وجدنـا اشياءاً اخـرى لم أفهمها. اذ وجـدنا اشياءاً خشبية، تفحصت واحدة منها فوجدت انها تنتهي بأسطوانة حديدية، وتحتوي على شيء يشبـه نصف دائرة معدنية داخلها اصبع، وتحرك عندمـا ضغط عليه، لكن لم يحدث شيء:
قال الطويل النحيف:
- «اذن، هذه العربات تحمل بضائع وناساً، اذ يوجد مقاعد للجلوس:»

سأله هنري:

ـ«وما هذا؟»

كان صندوقاً خشبياً مليئاً بأشياء تشبه بيضة كبيرة معدنية، وكانت البيضة بحجم بيضة الوز. التقط هنري واحدة وتفحصها. كانت مصنوعة من الحديد، ذات سطح مقسم الى مربعات، وفيها حلقة معدنية سحبها «هنري» فأنسحب في يديه قال «الطويل النحيف».

ـ «ايمكنني ان القي نظرة عليها؟»

سلمها «هنري» بطريقة عشوائية فسقطت على الارض قبل أن يمسك بها «الطويل النحيف . تدحرجت حتى سقطت خارج العربة واستقرت تحتها. كان «هنري» يوشك ان يتبعها عندما أمسك به «الطويل النحيف» من ذراعه وقال له:

ـ «دعها، يوجد المزيد منها»

انحنى بأتجاه الصندوق، وسمعنا شيئاً مريعاً: سمعنا صوتاً هائلاً تحت أقدامنا، وارتجفت العربة من شدة العنف، وكان عليّ ان امسك بشيء ما لأتفادى الارتطام بالأرض. وكان صدى الضربة يدوّي في النفق كأنه صوت طرق متواصل يتباعد. قال هنري مرتجفاً:

ـ «ما كان ذلك الصوت؟»

لم يكن الأمر يحتاج للتفسير. فقلت:

ـ «لو لم تتدحرج البيضة تحت العربة..»

قاطعني الطويل النحيف قائلاً:

ـ «انها أقوى من الألعاب النارية، لكن لأي غرض كانت تستخدمها الشعوب القدماء؟»

التقط «الطويل النحيف» واحدة اخرى. فقال هنري:

ـ «لو كنت مكانك لم أعبث بها»

وافقته في رأيه لكن بصمت، أعطى «الطويل النحيف» الشمعة التي كان ممسكاً بها لـ «هنري» ليتمكن من تفحص البيضة جيداً.

قال هنري:

ـ «اذا انفجرت....»

قاطعه الطويل النحيف:

ـ «انها لا تنفجر، اذ لم تنفجر من قبل عندما نقلت الى هنا. ولا اعتقد ان اللمس يسبب شيئاً فأنت سحبت الحلقة اولاً، ثم سقطت وبعدها بقليل...»

وقبل أن أدرك ما كان يفعل، سحب الحلقة من البيضة فأنفصلت عنها بسهولة، صرخنا أنا وهنري، لكنه تجاهلنا، سار الى فتحة العربة ورمى البيضة تحت العربة.

وهذه المرة، سمعنا، فضلاً عن صوت الأنفجار، صوت تهشم الزجاج، وهبت ريح فأنطفأت شمعتي. قلت له بغضب:

ـ «كان غباء منك أن تفعل ذلك»

اجابني:

ـ «لقد حمتنا ارضية العربة. ثم انها ليست مجازفة خطرة. على ما أعتقد»

ـ «كان من الممكن ان نجرح بسبب الزجاج المتطاير.»
ـ «لا أعتقد ذلك»

كان يجب ان ادرك من قبل ان «الطويل النحيف» ذو تفكير منطقي ما دام فضوله لا يثيره شيئاً. اذ عندما يهتم بشيء ما، فلا يفكر الا بأرضاء فضوله

قال له هنري:

ـ «لو كنت مكانك لما فعلت ذلك»

كان واضحاً على «هنري» انه يقاسمني الشعور المخيف من التجربة . قال «الطويل النحيف»

ـ «الان نحن نعرف كيف نستخدمها .. لقد حسبت الى الرقم سبعة بعدما سحبت الحلقة حتى انفجرت»

كان شعوراً لطيفاً ان يقول «نحن» ، اذ شعرت اني من ضمن المجموعة مرة اخرى على الرغم من ان الطرف المقابل في المجموعة هو «هنري» . قلت للطويل النحيف:

ـ «حسن انت تعرف كيف تستخدمها. فما نفع ذلك؟

لم يزد شيئاً . كان قد وجد حقيبة جلدية خضراء في احد المحلات. وبدأ يأخذ البيض من الصندوق ويضعه في الحقيبة، فقلت له:

ـ« هل ستأخذها معك

هزّ راسه وقال:

ما حدث هو ان في ذلك الصباح كانت الكونتيسة تتفقد المقاطعة .وسارت في طريق عودتها الى المزرعة .كانت العناية

بالمرضى ، وتوزيع الهبات شيئاً مألوفاً عند النساء من طبقة النبلاء . وعندما كانت السيدة «مي» زوجة السيد «جيوفري» على قيد الحياة كانت تتفقد احوال الفلاحين في «ورتـون» . اعطتني مرة تفاحة وكنت سعيداً بها . اما الكونتيسة فكان الكرم والعناية بالاخرين لاتقوم بها من باب الواجب بل نابع من طبيعتها الكريمة الودودة . وكان عذاب النـاس وحتى الحيوانات يسبب لها الماً ـ هذا ما اخبرت به بعد ذلك ، كانت زوجة البستاني قد احترقت ساقها بالماء الحار وكانت تتماثل للشفاء ، لكن الكونتية أرادت التأكد من ذلك بنفسها . وقد اخبرها رجال المزرعة انهم عثروا على ثلاثة صبية مختبئين ، اثنـان منهم صم وبكم وواحد منهمـا يعـاني من العمى . فأخذت مسؤوليتنا على عاتقها .

كان برفقتها تسع او عشر نساء ، وثلاثة فرسان ، وصبية الفرسان ، وسائسو الخيل واخذونا معهم .

لم اتذكر شيئاً من الرحلة ، لكني علمت بعد ذلـك اننا قطعنـا مسافـة عشرة اميال لنصـل الى القصر ذي القلعـة الحمراء .

كان القصر ذو القلعة الحمراء مشيداً على ارض عاليـة وتطل على منطقة التقاء نهرين . كان قديماً جداً ، وقد اعيد بناء بعض اجزاء منه ، واضيفت له بنـايات اخـرى . اما القلعة فكانت تبدو حديثة لانها كانت مشيدة من حجر احمر

كبير الحجم يختلف عن الحجر المستخدم في البناء . كانت تضم قاعات الحكم ، غرف العائلة . وقد وضعوني في احدى تلك الغرف .

لقد اضافوا الى القلعة بنايات اخرى في المقدمة وعلى الجانبين ، كالمطابخ ، والمخازن ، ودكان الحدادة ، ووجار الكلاب ، واسبطلات الخيل ، وكل ما يحتاجونه للاستخدام اليومي . كان هناك ايضا جناح للفرسان العزاب ، يحتوي على اثاث جيدة كان فيه ثلاثة فرسان فقط في ذلك الوقت . اما المتزوجون فكانوا يسكنون في دورهم على مقربة من القصر . جزء من بناية الفرسان كان مخصصاً لصبية الفرسان ، وكان معظمهم اولاد الفرسان ، وكانوا يتدربون ليصبحوا فرساناً . وقد امرت الكونتيسة ان يمكث «هنري» و«الطويل النحيف» معهم . أدر كا انه لايوجد خطر من تتويج وشيك الحدوث ، فقررا الانتظار ورؤية ما سيحدث . كنت في حالة مرض واعاني من الحمى والهذيان . أخبراني بعد شفائي اني عانيت من الحمى مدة اربعة ايام ، كنت اميز بعض الوجوه امامي خاصة وجه الفتاة ذات العينين الغامقتين والتي ترتدي عى رأسها «ترباناً» ازرق . بدأت اتماثل للشفاء حتى عدت الى وعيي ، وشعرت بنفسي مرة اخرى على الرغم من الضعف الذي كنت اعاني منه . رأيت الكونتيسة تجلس على السرير قربي وكانت «الويز» تقف بعيداً . ابتسمت

الكونية وقالت ـ «هل تشعر بتحسن» ؟

كـان عليّ ان لا اتحـدث فالمفـروض اني اصم وابكم ، و«هنري» ايضاً . لكن اين هو ؟ نظرت حولي باحثاً عنه فلم اجده . كنت اسمع اصواتاً ، وصوت ضرب على الحديد آتية من شباك طويل . ثم عادت الكونية تقول :

ـ «كنت مريضاً جداً ، يا ويل لكنك الان افضل ، عليك ان تستعيد قواك» !

يجب ان لا اتحدث لكنها نادتني «بأسمي» فكانت تتحدث لغة قومي . ابتسمت مرة اخرى وقالت :

ـ «نحن نعرف السر» صديقاك «هنري» وزان بول الذي تدعوه بالطويل النحيف على ما يرام» .

لم اجد سبباً لاستمراري في الادعاء فقلت :

ـ «هل اخبرك بكل شيء»

قالت :

«اثناء الحمى لايستطيع المـرء السيطرة عـلى نفسه ، كنت مصمماً على عدم الكلام وقلت ذلك بأعلى صوتك» .

أدرت رأسي خجلاً منها فقالت :

ـ «لاتهتم لذلك ، يا ويل ، انظر اليّ» !

كان صوتها ناعماً لكنه قوي ، اجبرتني على النظر اليها فريتها لاول مرة بوضوح . كان وجهها طويلاً جداً فلا يمكن ان تكون جميلة في يوم ما ، لكن ملؤه الوداعة والرقة ، كذلك

ابتسامتها . وكان شعرها اسود غـامقاً تتخللـه الشعرات البيضاء ، وكان متدلياً على كتفها . وكانت الخطوط المعدنية للتاج واضحة على جبينها فوق عينيها الرماديتين الكبيرتين اللتين توحيان بالصدق .

سألتها :

ـ «هل يمكن ان ارى صديقي» ؟

ـ «بالطبع ، ستحضرهما «الويز» .»

●●●

تركتنا الكونتيسة نحن الثلاثة معاً ، فقلت لهما :

ـ «انا آسف ، لقد افشيت السر من دون قصد» .

قال هنري :

ـ «لم تكن في وعيك ، هل انت الان على ما يرام» ؟

اجبته :

ـ «احسن من قبل . ماذا سيفعلون بنا» ؟

قال وهو يشير الى «الطويل النحيف» :

ـ «لا شيء على ما اظن . انه يعرف اكثر مني» .

فقال «الطويل النحيف» :

ـ «انهم ليسوا كسكان القرى او المدن . لو وجدنا الفلاحون لسلمونا المركبات الثلاثية القوائم . لكن الناس هنا لا يفعلون ذلك . فهم يؤمنون ان من الخير للاولاد ان يتـركوا دورهم ويعتمدوا على انفسهم . اولادهم يفعلون ذلك ويهاجرون الى

اماكن اخرى» .

لم افهم حديثه تماماً لكني قلت :

ـ «اذن ، سيساعدوننا .

هزّ رأسه وقال :ـ

ـ «كلا ، انهم متوجون . صحيح ان لهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصة بهم لكنهم يطيعون المركبات الثلاثية القوائم ومـا يزالون عبيداً لهم . يجب ان لايعرفوا خططنا على الرغم من معاملتهم الودودة» .

قلت بفزع جديد :

ـ «اذا كنت أهذي فلابد اني قلت شيئاً عن الجبال البيض»

هنر «الطويل النحيف» كتفه وقال :

ـ «اذا حدث ذلك ، فأنهم بالتأكيد اعتقدوا انه مجرد هذيان بسبب الحمى . انهم لايشكون بشيء ، اذ يعتقدون اننا مجرد متجولين ، ويعرفون انكما من اراضي عبر البحر . لقد اخذ هنري الخارطة من جيبك وهي الان في امان» .

كنت افكر بصعوبة فقلت :

ـ «اذن يجب ان نغادر المكان بسرعة» .

ـ «كلا ، انت تحتاج الى عدة اسابيع قبل ان تصبـح مهيأً للسفر» .

ـ «لكنكما تستطيعان الرحيل . ساتبعكما عندما استطيـع ذلك . انا اتذكر الخارطة جداً» .

قال هنري للطويل النحيف :

- «انها فكرة جيدة» .

شعرت بضربة من كلامه . كان الاقتراح بالنسبة لي نبلاً وتضحية بالنفس ، لكن ان يقبل «هنري» بهذه الطريقة فكان شيئاً غير مستساغ . قال الطويل النحيف له :

- «كلا ليست فكرة جيدة . اذا رحلنا وتركنا الثالث فأنهم سيبدأون التساؤل . وربما سيتبعونا ويصطادوننا لديهم حصن ومهارة الصيد ، وسيكون تغييراً لهم ان يصطادونا بدلاً من الغزلان والثعالب اليس كذلك» ؟

سأله هنري وهو غير مقتنع :

- «ماذا تقترح اذن ؟ اذا مكثنا هنا سيقدمونا للتويج»

قال الطويل النحيف :

- «البقاء هنا الان افضل . لقد تحدثت مع بعض الصبية وقالوا ان التتويج سيتم بعد أسابيع قليلة بعد المسابقات والمباريات . هذا الاحتفال يقام مرتين في السنة ، مرة في الربيع ، ومرة في الصيف . حيث تقام العاب ومباريات بين الفرسان ، وفي اخر يوم من المهرجان يتم التتويج .

قال هنري :

- «اذا مكثنا هنا حتى ذلك الحين فأننا» ..

قاطعه الطويل النحيف قائلاً :

«سنقدم للتتويج ، هذا صحيح لكننا لن نبق الى ذلك الحين .

ستستعيد قواك يا ويل وفي غضـون ايام المهـرجان ستعم الفوضى على المكان ولن يفتقدنا احد يوماً او يـومين ، هـذا فضلاً عن اننا سنحصل على فـرصة مثـيرة للبقاء في هـذا المكان» .

قال هنري :

ـ «تقصد اننا لن نفعل شيئاً حتى ذلك الحين» ؟

«نعم»

ارتحت بعد ان قررا عدم الرحيل وتركي وحدي ، فقلت بنبرةاللامبالاة المتصنعة :

ـ «عليكما ان تقررا البقاء او الرحيل»

قال هنري متردداً :

ـ «اعتقد ان البقاء هو افضل حل» .

●●●

كان «هنري» و«الطويل النحيف» يأتيان لرؤيتي من حين الى حين ، لكني كنت دائماً ارى الكونتيسة و«الويز» . احياناً كان الكونت يطل علينا ، كان ضخماً وقبيحاً لكنه ذو سمعة ممتازة في الشجاعة والصيد والمباريات . يقال انه ذات مرة التقى بدب وحشي وكبير واستطاع ان يقتله بخنجره . كان ودوداً معي ومولع بسرد النكات التي كان هو الذي يضحك عليها . كان يتحدث لغة قومي بضعف فلم استطع فهمه في اكثر الاحيان . وكان في رأيه ان تعلم اللغات مناسب للنساء

فقط .

لم اكن اعرف الكثير عن طبقة النبلاء ، اذ في قريتي ، كان خدم السيد رئيس الاقليم لايختلطون بالناس . فلم نعلم شيئاً عما يحدث في قصره . لكن الان رأيتهم عن قرب ، وكنت طول الوقت مستلقياً في الفراش وافكر بهم وبوجهة نظرهم تجاه المركبات الثلاثية القوائم . كانـوا يختلفون عن الفـلاحين وحتى عن سكان المدن ـ كما قال الطويل النحيف ، فعـلى سبيل المثال يستطيعون تحمل فراق اولادهم ، اما في القرى فأن الامر مختلف ذلك يعود الى ان حياتهم لها نمط خاص . في مجتمع النبلاء كان على النساء ان يكن ذات صفات مميزة ومطلعات على الثقافة والاصول الرفيعة ، وكان لـزاماً عـلى الرجال ان يكونوا شجعاناً . لم تكن في تلك البلاد حروب لكن هناك طرق عديدة اخرى ليبين بها الرجل شجاعته وان هروب الفتى من رتابة حياته ، على الرغم من انه عمل لا اظنه نبيلاً ، الا انه من وجهة نظرهم يعد من صفات الشجاعة والعزم .

الشيء المؤلم والمؤسف هو ان كل تلك الشجاعة والبسالة والكياسة تذهب سدى لتقبلهم التتويج ويترقبونه بشدق . اذ يعدونه جزءاً من الفروسية عند الرجل ، واكتمال للانوثة عند الفتاة . فكرت بذلك وشعرت كيف ان الصفات الجيدة التي يتمتعون بها تصبح لا معنى لها بعد التتويج . فما هي قيمة الشجـاعة من دون الحـرية ومن دون فكـر متحد ليـوجـه

الحرية ؟

علمتني «الويز» كيف اتحدث لغتهم وكانت اسهل مما توقعت . كانت الويز معلمة صبورة وكان لدينا متسع من الوقت للتعلم ، كان تلفظ الكلمات هو الشيء الوحيد الذي واجهة صعوبة فيه ، اذ كان علي ان اتعلم كيف افعل اصواتاً من انفي لا تلفظ صحيحاً . بعد مدة اكتشفت ان اسم «الطويل النحيف» ليس «زان -بول»بل جان بول واخذت وقتاً طويلاً كي اتعلم لفظ اسمه صحيحاً .

سمحوا لي بالنهوض من الفراش بعد بضعة ايام . اختفت ملابسي القديمة واعطوني ملابس جديدة ، كانت حذاءاً وجورباً وقميصاً احمر ، وسروالاً حليباً قصيراً . كانت الملابس مصنوعة من اقمشة فاخرة ، وكل يوم كانوا يأخذون ملابسي للغسل والكي ويعيدونها نظيفة براقة .

كانت «الويز» تتجول بحرية في القصر والقلعة وكانت دائماً تتحدث معي ، وتعلمني لغة قومها . في قريتي لم اختلط بالفتيات اذ لم اكن اشعر بالراحة معهن ، اما مع «الويز» فكان الامر مختلفاً . كانت تتحدث لغتي بطلاقة وبعد مدة بدأت تلح عليّ ان اتكلم بلغتها وبهذه الطريقة تمكنت من تعلم المزيد فمثلاً كانت تؤشر على الشباك فاقول لها (لا فونتر) او تؤشر على السماء فاقول لها (لاسيال) ، وهكذا حتى اتعلم اكثر واكثر .

كانت صحتي ما تزال واهنة فلم يسمحوا لي بالانضمام الى بقية الاولاد . واظن انهم كانوا سيسمحون لي بذلك لو اني أصريت على ذلك ، لكني كنت مطيعاً لهم فقبلت الوضع . وكانت «الويز» كريمة وعطوفاً معي فلم اعاندها او اخالف اوامرها او اوامر الكونتيسة ، كانت «الويز» هي الطفلة الوحيدة المتبقية للكونت والكونتيسة ، فاخواها قد رحلا بعيداً وواحد يوشك ان يصبح فارساً عند دوق عظيم الشأن في الجنوب . ولم الاحظ ان «الويز» كثيرة الاختلاط بالفتيات فأيقن ان لاصديقة لها .

كانت الويز تتحلى بوداعة ورقة المشاعر كوالدتها ، وشعور بالانسانية والمحبة للمخلوقات جميعاً ، من البشر الذين حولها الى الدجاج في المزرعة ، كانت ابتسامتها تشبه ابتسامة والدتها (وهذا هو الشبه الجسدي الوحيد) ، وكانت جميلة ليس فقط عندما تبتسم بل في كل الاحوال . كان وجهها صغيراً وجلدها ابيض كالعاج يشع بالوان دافئة ، وذات عينين بنيتين . تساءلت عن لون شعرها اذ كانت ترتدي التربان دوماً فكان يغطي رأسها تماماً . سألتها مرة عنه باللغة الفرنسية (لغة قومها) التي كنت ما أزال اتلعثم عند التحدث بها لكنها لم ترد عليّ ، فاما انها لم تفهمني او تظاهرت بذلك ، سألتها مرة اخرى بكل صراحة فأجابتني باللغة الفرنسية وبسرعة بحيث اني لم افهم شيئاً .

كنا واقفين في حديقة صغيرة مثلثة أمام التقاء النهرين لم يكن احد قريباً مني سوى العصافير وبعض الفرسان الذين يمرون من خلفها من حين الى حين . وضعت يدي على التربان وسحبة فجاء بيدي بسهولة . وقفت «الوين» امامي ورأسها مغطى بشعيرات قصيرة جداً وخطوط التاج .

●●●

كان وجود التاج رأسها احتمالاً لم يخطر على ذهني . كنت دائماً افترض ان الاطول مني هو الاكبر مني سناً وكانت «الوين» اقصر مني بأنج او انجين . حتى قسمان وجهها كانت صغيرة ورقيقة ، فلم يخطر على ذهني انها اكبر مني ومتوجة حديثاً . نظرت اليها وكانت محمرة خجلاً وغضباً .

ادركت من ردة فعلها اني فعلت شيئاً مشيناً ، لكني لم افعل ذلك عن قصد بعد ان غطت «الوين» رأسها بالتربان مرة اخرى شرحت لي سبب ارتدائها التربان . كانت الفتيات يرتدين التربان عند مراسيم التتويج ، وبعد ان يعدن من التتويج يستمرن بارتدائها كي لا يرى أحداً رؤوسهن ، حتى الكونتيسة كان ممنوعاً عليها رؤية رؤوسهن الصلعاء . وبعد ستة اشهر تقام حفلة لهن وفيها يظهرن رؤوسهن لأول مرة . من الطبيعي ان ما فعلته هو امر مشين وكأني قلعت تاجاً من راس صبي .

لم تتحدث «الوين» بغضب او بتأنيب ، بل بصبر ،

وشعرت بالخجل لاني رأيت رأسها . امـا هي فكان قلقهـا الوحيد هو ان احداً ما يمكن ان يكون قد رآنا ورأى الحادثة . كان السحل على الارض هو العقاب الاول لمن يفعل ذلـك ، تتبعه عدة عقـوبات . وفي احـدى المرات قُتـل رجل بسبب اعتداء كهذا . كنت ممتناً لها لخـوفها عـلي ، وكنت اشعر با[illegible] حنتي الشنعاء . كانت الفتيـات في قريتي مثـل الصبيان لا يرتدين شيئاً على الرأس ويبقين من دون شعر مثل الصبيان .

بدأت افكر بالتتويج اكثر واكثر وبدأت اشعر انه يفتقر الى الحقوق الانسانية . كرهت الكونت والكونتيسة وبقية الناس لتقبلهم التتـويج وكـرهت كل شيء حتى صفـاتهم الحسنة ومعاملتهم الطيبة .

●●●

كان الحادث بالنسبة لالـويز بمنـزلة ضربتـين ، الاولى لاحتشامها ، والثانية لفكرتها عني ، على الرغم من علمها اني فعلت ذلك عن عدم دراية بالامر وعواقبه . كان واضحاً في عينيها ان ما قمت به هو عمل بربري والبربري ، في عمل ما لابد ان يكون بـربريـاً في امور اخـرى . فبدأت الشكـوك تساورها .

اما من ناحيتي ، فان ما حدث لم يغير من مشاعري او من صداقتي تجاهها . والشيء الوحيد الذي يجب ان افعله كان

نسيان ما حدث والتركيز على امور اخرى اكثر اهمية وهي الرحيل الى الجبال البيض . رأيت بعد ذلك «هنري» وجان بوبل واقترحت عليهما الرحيل في الحال وكنت واثقاً من قدرتي على الرحيل . لكن «جان ـ بول) أصرّ على الانتظار حتى مدة المهرجان ، وسانده «هنري» بالرأي من كل قلبه . غضبت وخاب ظني بهنري كنت اتوقع منه مساندتي لا احباطي . بدأت الانحياز مرة اخرى وبدأت اشعر اني خارج المجموعة ، فتركتهما .

لاقيت الكونت عندما كنت ارتقي السلم ، ابتسم لي وضربني ضربة خفيفة وقال اني أبدو على ما يرام وكنت ما ازال محتاجاً الى السمنة فيجب ان آكل المزيد من لحم الغزال المفيد لتقوية الضعفاء . صعدت الى حجرة الاستقبال ووجدت «الويز» ، ابتسمت لي ورحبت بي ، لكنني كنت اشعر ان الشكوك كانت موجودة تجاهي .

استمرت صداقتنا على الرغم من وجود بعض التحفظات الجديدة بيننا . اصبحت صحتي اقوى من قبل ، فأستطعت الذهاب مع الويز الى المزارع وركوب الخيل ، كنا نركب الخيل الى المرج المملوء بزهور الصيف . كنت اجيد ركوب الخيل ، وبعد مدة اصبحت بارعاً بذلك كبراعتي باللغة الفرنسية .

بعد قضاء يومين ممطرين ، أشرقت الشمس مرة أخرى ، وعاودنا نشاطاتنا مرة أخرى . ذهبت مع «الويز» الى بيوت

الفرسان الذين قدموا لنا عصير الفواكه والكعكات التي هي من صنع زوجاتهم . وفي المساء كنا نجلس مع الكونتيسة في حجرة الاستقبال نتحدث معها او نصغي اليها وهي تغني بمصاحبة آلة مدورة لها عنق ، وفيها اوتار للعزف عليها . واحياناً كان ينضم الكونت اليها ويقضي الامسية معنا .

اخبرني الكونت والكونتيسة انهما متعلقان بي ، واعتقد سبب ذلك هو ابتعاد ولديهما عنهما ، كانا يحزنان بشدة على فراق ولديهما بدلاً من منعهما من الرحيل وتحدي فكرة الابتعاد . كنت اعلم مدى تعلقهما بي . وفي احدى المرات كانت «الوين» غير موجودة معنا وكانت الكونتيسة تطرز قطعة من القماش ، وانا كنت اراقب حركة يدها السريعة في كل غرزة بأعجاب . كانت تطرز وتتحدث معي بصوت خافت ودافيء سألتني عن صحتي واخبرتها اني بصحة جيدة ثم سألتني اذا كنت سعيداً في القلعة فأكدت لها ذلك . وقالت :

- «انا سعيدة بذلك ، فأذا كنت سعيداً ولا تريد الابتعاد عنا فيمكنك المكوث معنا»

كانت على ثقة اني سأقبل الامر ، ونقدم انا وهنري وجان بول للتويج بعد المهرجان . كان من المفروض ، بعد ان نغادر مدة الصبا الى حياة الرجولة ، ان نعود الى منازلنا لنبدأ الحياة المنتظرة منا كرجال . حيرني ما قالته الكونتيسة . وحيرني عدم رغبتها بمغادرة القلعة ،!ثم عادت تقول :

ـ «اظن ان صديقيك يودان الرحيل . بأمكانهما ايجاد عمل عندنا كخدم ، لكن اعتقد انهما سيكونـان اكثر سعـادة في قراهما . أما بالنسبة لك فالأمر مختلف» .

نظرت اليها سألتها :

«كيف ياسيدي» ؟

ـ «أنت لست من طبقة النبلاء ، لكن الملـك ممكن ان يهبك منزلة النبيل ، والملك هو ابن عمي ، الم تعرف ذلـك ؟ وهو مدين لي ، اذ انقذته مرة من الضرب عندما كان صبياً وغير متوج لذلك فلا توجد صعوبة في منحك منزلة نبيل .

بدأت افكاري تتشتت ، لقد اعتدت على الحياة في القصر والعيش مع اؤلئك الناس لكن لا ان اعيش معهم للابد . وهذا الحديث عن الملك قد شوقني . يحكم في بلدي انكلترا ملـك ايضاً يعيش في مكان ما في شمال البلاد . لم اره من قبل ولم اتوقع ان أرى ملكاً في يوم ما .

اخبرتني انها تريد مني البقاء ليس كخادم بل كفارس . سيكـون لي خدم ، وخيـول ، ودرع مصنوع خصيصـاً لي لاشـارك في المسابقـات والمباريـات ، وسـأمكث في القلعـة الحمراء مع عائلة الكونت . نظرت اليها وادركت انها جادة فيما تقول . لم اعرف ماذا اقول لها .

ابتسمت الكونية وقالت :

«يمكننا التحدث بهذا الموضوع لاحقاً . لاتستعجل في اتخاذ ،

قرارك» !

●●●

كان ردّ فعلي لما قالته الكونية هو عدم التأثير به اذا اعتبرته اطراءاً ، اذ لم اقتنع بترك الأمل في الحرية والتضحية بعقلي مقابل ارتداء المجوهـرات والحصول عـلى خدم يمسكـون تيجانهم احتراماً لي . كانت الفكرة سخيفة عـلى الرغم من جميع الفرص الجيدة ممكن ان احصل عليها بالمقابل ، لن اعيش وانام مع الخرفان . في صباح اليوم التالي استيقظت مبكراً وفكرت في الموضوع مرة اخرى ، رفضت الفكرة لكن ليس بسرعة ،وشعرت اني فخور بنفسي لأن اكون مثالياً . ان قبول ذلك العرض معناه التخلي عن «هنري» و«جـان بول» والمتشرد «أوزيما ند اياس» والكابتن كورتس ، وجميع الرجال في الجبال البيض . لن افعل ذلك ، لاشيء سوف يغريني عن التخلي عن مبادئي .

بدت لي الفكرة منذ البداية غير قابلة للتفكير ،لكني مع ذلك لم استطع منع نفسي من التفكير بالامتيازات التي ممكن ان احصل عليها .لقد تعلمت لغتهم ، ويمكنني فهمهم والتحدث اليهم . وكانت هناك اشيـاء كثيرة مشـوقة بعـد مهرجـان التتـويج . اذ سـيحـل مهرجـان الحصاد ثم مهـرجـان الصيد ، وفيه نركب الخيول في الصبـاح في ايام الخـريف والصقيع على الحشائش يتهشم تحت ارجل الخيول ، وكلاب

الصيد تركض معنا ثم نعود للقصر في المساء ونجلس قرب الموقد . بعدها تحل احتفالات عيد الميلاد ، والتي تستمر اثني عشر يوماً . ويأتي في غضون هذه المدة الممثلون المتجولون ، والمهرجون ، والمغنون . بعدها يأتي الربيع بجماله ثم الصيف ومهرجان التتويج مرة اخرى وفي ذلك الوقت سيتغير موقفي تجاه من حولي .

كان ، في قريتي ، الحد بين الصبا والرجولة حداً فاصلاً اكثر من هنا . كان الرجال في قريتي كأنهم غرباء عني . لقد احترمتهم ، واعجبت بهم ، وكنت اهابهم واحبهم لكني لم افهمهم كما فهمت الناس في القصر ، وكلما ازدادت معرفتي بهم وجدت صعوبة في رفض اقتراح الكونتيسة . كانوا متوجهين وتقبلوا سيطرة المركبات الثلاثية القوائم . لكن اذا بقيت معهم فلن يمنعني ذلك من ان اكون مثل ، الكونت والكونتيسة طيب القلب وكريماً وشجاعاً وسعيداً .

بدأت افكر كثيراً بالاقتراح ، واصبح التوصل الى قرار مشكلة بالنسبة لي . فكرت بالناس في القصر ربما كان لهم شكواهم ومخاوفهم من التتويج . وكلها تلاشت عندما ارتدوا التيجان .

يالها من خسارة ان تكون المركبات الثلاثية القوائم جزءاً من التتويج فكرت ان المركبات الثلاثية القوائم لاتتدخل كثيراً في حياة الناس . صحيح حدثت حوادث كثيرة في البحر عندما

هددوا بغرق سفينة الجوزاء وامثالها لكن كم هو عدد الذين يغرقون بسبب العواصف او الارتطام بالصخور ؟ حدثني (اوزيمـاندايـاس) عن الرجـال الذين يعملـون في المنـاجم لاستخـراج المعادن للمـركبـات الثـلاثيـة القـوائم ، وعن اصطياد المركبات للرجال ليخدمـوها . حتى لـو كان ذلـك صحيحاً لابد انها تحدث لانـاس قليلين . فسكـان القصر يعيشون بأمان وحرية وسعادة .

بدأت اتأمل فكرة الـولاء لهنري وجـان بول والاخـرين وبمرور الايام اصبحت هذه الفكرة ايضاً لا تقنعني . فتشت عن صديقي محاولاً ان اعيد الثقة في نفسي ، وافكر في ترك المكـان ، لكنهما رفضـا الفكرة . واخـذت انطباعـاً انهما لايـودان التحدث معي . وكنت سعيـداً بتصرفهما اذ كنت ابحث في داخل نفسي عن سبب لعدم الـولاء ، ومفيد لي ان يحدث شيء لاستاء منه .

●●●●●

بدأ حاجز الشك الذي وضعته «الـويز» بيننـا يتلاشى ، واصبحنا على ود مرة اخرى وقانعين بصداقتنا . في احد الايام اخذنا قارباً وجذفت حتى وصلنا الى جزيرة صغيرة في اعلى النهر . كان يوماً حاراً فجلسنا على الحشائش الباردة تحت ظلال الاشجار . لم احدثها عما قالته لي الكونتيسـة وكانت «الويز» هي التي تطرقت له ، وكانت على يقين بأني

سابقى معهم وشعرت بالسعادة لتفكيرها بتلك الطريقة . ان احيا في القصر الجميل مع «الويـز» كان شيئـاً يسعدني . ذكرت نفسي بأحتمال فشل التتـويج .. لكن لمـاذا يفشل ؟ حذرني الكابتن من مخاطر التتويج في البلاد الغريبـة لأن التيجان مصممة حسب لغات الاقوام . لقد تعلمت اللغة ، وعلى الرغم من اني لا اتحدثها بطلاقة الا اني افهمها فلن اصبح متشرداً بسبب ذلك . وكنت ارفض فكـرة التتويـج عندما لم يكن هناك شيء بالمقابل لاحصل عليه .

ذكرت نفسي بما كنت افكر به اثنـاء رقودي في الفـراش بسبب الحمى ، بأن لاشيء مهم ، ولا شيء ذو قيمة من دون وجـود عقل يتحـدى الظلم ، ويتسـاءل ، ويستقصي ، لكن احتكرت المركبات الثلاثية القوائم الرجال عندما كانوا في اعلى قمم القوة عندما كانوا قادرين على بناء مدن عظيمة وسفن كبيرة ، وربما هنـاك غجائب كثـيرة لا اعرفهـا . اذا فشل اجدادنا وهم في عزة قوتهم فكيف سيتمكن رجال قليلون في اعلى الجبال من محاربة المركبات ؟ اذا لا يستطيعون دحر المركبات فما هو البديل ؟ العيش بحقارة كالحيوانات نصطاد الطعام ونعاني من اليأس والحرمان .

وعندما كنت اجذف في طريق العودة من الجزيرة انزلقت الساعة من معصمي واستقرت على المجذاف ، نزعتها من يـدي واعطيتها «لألـويز» لتمسكهـا حتى نصل الى القصر

فسقطت من يدها ـ وهذا هو حال الفتيان ـ واختفت في عمق النهر . حزنت «الوين» عليها وهدأت من حزنها وقلت لها ان الساعة لاتشكل خسارة لي ـ بالطبع ليس في تلك اللحظة وانا مع «الوين» .

فكرت في البداية ربما سيكون الكونت والاخرون فضوليين لمعرفة من اين مصدر الساعة ، لكن لم يبد احد منهم اهتماماً لها ، اذ لايهتمون ببراعة القدماء هذا فضلاً عن ان الوقت لايعني لهم شيئاً . وكانت ساعة شمسية تفي بالغرض بالنسبة لهم .

●●●●●

قرب موعد المهرجان والمسابقات ، وكان هناك جو من العمل والاثارة . نصبت خيام كثيرة على المروج للذين لايمكثون في القصر وقت المهرجان . ساعدتهم ببعض الاعمال وتدربت على بعض الالعاب .

كنت ما ازال افكر بالموضوع وخاصة في نقطة الشعور بالولاء ، لكن الولاء لمن ؟ لرجال في الجبال البيض لايعرفون بوجودي ؟ الولاء لأوزيماندياس والكابتن كورنس ؟ بالنسبة لهما انا مجرد صبي من الصبيان الذين ارسلوا الى الجنوب ، واحد من درزينة من الصبية . الولاء لهنري وجان بول ؟ هل كانا يرغبان بوجودي معهما ؟ لم يعطوني انطباعاً عن ذلك كانا يفضلان الابتعاد عني .

●●●●●

بدأ المهرجان وبدأت الالعاب ، ورأيت هنري وجان بول في الحقول مع الخدم ينظفونها من النفايا والاوساخ . وفي صباح اليوم التالي شرح هنري وقت الهرب وكيفيته ، وذلك في الصباح الباكر قبل وقت استيقاظ خدم المطبخ . وقد جهزا طعاماً في حقيبتيهما أما حقيبتي فقد اختفت مع ثيابي القديمة . قال جان بول اذا لم اجدهما او اجد شيئاً مماثلاً لها فأن الامر لا يهم فبحوزتهما طعام يكفي لنا وكان من المفروض عليّ ان القاهما امام القصر في الوقت المحدد .

قلت لهما :

ـ «أنا لست راحلاً معكما» .

سألني جان بول :

ـ «ولماذا يا ويل» ؟

لم يقل هنري شيئاً بل وقف وابتسامة على شفتيه ، كرهته في تلك اللحظة اكثر مما كنت اكرهه وانا في القرية . فكرهه لي واحتقاره لي كان واضحاً .

قلت لهما :

«اذا ذهبتما من دوني فلن يفتقدكما ويتفقدكما احد اذ ستكون الامور مضطربة . لكن اذا ذهبت انا معكما فسيلاحظ الكونت الكونتسية إنني لست على مائدة الفطور وبالطبع سوف يبحثان عني»

قال هنري
ـ «بالطبع يا جان بول فالكونت لا يستطيع التحلي عن ابنه الذي تبناه» .
لم ادرك ان اقترح الكونتيسة قد تسللت اخباره ووصل الى الاخرين . حدّق بي جان بول فقلت :
ـ «سامهلكم يوماً للابتعـاد ، او ربما يـومين ثم اتبعكمـا . سأحاول كل جهدي ان الحق بكما لكن لا تنتظراني ، ضحك هنري وقال :
ـ «لن نفعل ذلك» .
لم اكن قد توصلت الى قرار ، كان فعلاً اسهل على هنري وجان بول ان يرحلا من غيري ، وفعلاً اني استطيع اللحاق بهما بعد ذلك ، اذ كنت اعرف الخارطة جيداً .
كان من ضمن فعاليات المهرجان اختيار ملكة المسابقات من قبل الفرسـان . كنت متأكـداً ان الاختيار سيقـع على «الوين» ليس فقط لانها ابنة الكونتيسة بل لأنها كانت اجمل من جميـع الفتيات . وكنت متشـوقاً لارى تلـك الفقرة من المهرجان .
قال جان بول :
ـ «حسن ربما من الافضل ان نرحل نحن الاثنين .
قلت لهما :
«حظاً سعيداً»

استدرت وسرت باتجاه القصر . قال هنري شيئاً لكني لم أسمه جيداً ، ولم انظر الى الخلف .



استيقظت عند الفجر وادركت ان لـدي متسعاً الـوقت لاتسلل من القصر والتحق بصديقي ، لكني لم اتحـرك من فراشي . كان شباك حجرتي يطل على الجنوب ، رأيت السماء صافية ولونها ما يزال ازرق قاتماً ، وتشع بها نجمة واحدة ،

كنت سعيداً لانها سيرحلان في جو مناسب وسعيداً لأن الجو سيكون مناسباً لمارسة الالعاب والمسابقات وخاصة مسابقة اختيار الملكة . مكثت في فراشي اتطلع الى السماء حتى خلدت الى النوم مرة اخرى لاستيقظ على صوت الخادمة وهي تدق الباب . رأيت السماء قد فتر لونها بلون اشعة الشمس الذهبية .

لم يذكر احد «هنري» و«جان - بول» ولا يبدو ان احداً قد افقتدهما . لم يكن هذا الامر مدهشاً ، ففي ذلك اليوم كان المهرجان في اوج نشاطه ، وكل فرد كان في قمة الاثارة والمعنويات العالية . بعد تناول الفطور ذهبنا الى الحقول ، الى الاماكن المخصصة للاحتفال . لم ار «الويز» ذلك الصباح اذ كانت ستأتي الى المهرجان مع بقية السيدات اللواتي سيشاركن في مسابقة اختيار ملكة المهرجان من قبل الفرسان . جلس الجميع في الاماكن المخصصة لهم ، وحين كنا ننتظر المسابقة تمتعنا بالاستماع الى مغن يغني بعض الاغاني الشعبية ، بعد ذلك جاءت السيدات ودخلن الى الحلبة .

شارك في المسابقة احدى عشرة سيدة . عشر منهن كن يرتدين ملابس فاخرة ذات خيوط ذهبية وفضية ، وتسير خلف كل واحدة منهن خادمة لحمل الفستان من نهايته لكي لا يتلوث بالتراب . كانت رؤوسهن عارية وشعورهن مصففة

ومـزودة بأمشـاط ذات الوان بـراقة والتي تلمـع في اشعة الشمس . كانت «الوين» هي السيدة الحادية عشرة . كانت ترتدي التربان على رأسها وفستاناً بسيطاً ذا لون ازرق غامق ومزين بشريط ابيض عند الخصر . ولأنها اصغر السيدات ، ظهرت الى الحلبة اخر واحدة ومن دون خادمة خلفها . سرن السيدات عبر الحقل بمصاحبة ضربات الطبول حتى وصلن الى مكان تجمع الفرسان والذي هو امام المكان المخصص للكونت . وقفن هناك واحنين رؤوسهن .

ثم تقدمن الى الامام واحدة خلف الاخرى . والتقاليد ان كلما تمر سيدة من امام الفرسان فالذي يختارها يخرج سيفه من غمده ويرفعه عالياً . وبعد مرور اول ثلاث سيدات بدأنا نعرف نتيجة المسابقة ، اذ من بين ثلاثين او اربعين فارساً اشهر اثنان فقط سيفهما وذلك مجاملة للسيدات وهذا مـا حدث ايضاً للعشر سيدات . وعندما تقدمت «الوين» اشهرت جميع السيوف وكأنها غابة من الذهب والفضة . شعـرت برغبة في البكاء والضحك في ان واحد .

تقدمت «الوين» ومن خلفها بقية السيدات ووقفن امـام الكونت بوقار وشجاعة ليضع التاج على التربان الذي كانت ترتديه ، وذهب البعض ليقبل يديها وانا كنت واحداً منهم .

●●●●●

لم ارَ (الوين) اثناء الاحتفال لاتحدث اليها ، اذ كانت تقوم

بواجباتها في التحكيم وتوزيع الجوائز . وكنت مثاراً وسعيداً في الاحتفال وانا ارى السعادة والفرح على وجوه اؤلئك الناس الذين عرفتهم .

عندما بدأ القسم الثاني من الاحتفال سمعت صوتاً بعيداً غريباً والذي بدأ يعلو بالتدريج . كان صوت دوي متقطع فعرفت انه صوت مركبة ثلاثية القوائم . نظرت الى اتجاه الدوي لكني لم ارشيئاً اذ كان القصر والقلعة امامي . نظرت الى من حولي ولم ار احداً مهتماً كثيراً بالدوي وحتى بعد ان وصلت المركبة وتوقفت وقاوئمها في النهر لم الاحظ على الناس علامة خوف او عدم ارتياح اللذين كانا يسريان بدمي .

بدا لي ان حضور مركبة ثلاثية القوائم للاحتفالات حدث اعتيادي لا يسبب الذعر للناس . لقد كانوا معتادين على رؤية المركبات بأستمرار اكثر من سكان قرية «ورتون» الذين يرون مركبة مرة في كل تتويج . اما في هذه المنطقة فالمرء كل يوم يرى مركبة واحدة او مجموعة منها وهي تسير عبر السهل . انا ايضا اعتدت على هذا المنظر ، لكن كنت اراهن عن بعد وليس عن قرب . كنت واقفاً تحت ظلها رفعت بصري الى الاعلى بخوف . رأيت وجود اشياءاً مدورة تشبه الشبابيك على جوانب هيكلها وعلى ارضيتها . هل كان من بداخلها يرى من خلال تلك الشبابيك المدورة ؟ اعتقد ذلك .

لم الحظ ذلك من قبل لأن عندما كنت في قريتي لم اتجرأ

عـلى النظر الى مـركبة ثـلاثية القـوائم عن قرب كـان احد الشبابيك يطل عليّ تماماً . انـزلت نظري من عـلى المركبـة وبدأت انظر الى المسابقات بينما ذهني كان شارداً بأشياء اخرى .

وبمرور الوقت بدأ خوفي يتلاشى . لم تحدث المـركبة اي صوت بعد وقوفها قرب القصر ، ولم تتحزك مطلقـاً . كانت واقفـة هناك تـراقب ، وكان الجميـع منشغلـين بمـراقبـة المسابقات غير مكترثين لوجودها .

اقيمت حفلة في المساء ، والتي تقام ايضاً كل يوم من ايام المهرجان ، ولأن الجو كان منـاسباً اقيمت الحفلـة في فناء القصر . كان سكان القصر والفرسان وزوجـاتهم جالسـين حول الموائد وكان العشـاء يجلبه لهم الخـدم . اما البقيـة فكانوا يخدمون انفسهم بأنفسهم من موائـد خاصـة لهم مـزودة باصنـاف مختلفة ومتعـددة من السمـك واللحـوم والخضروات والفـواكه والحلـوى ، وكانت المـوائد مـزودة بأصناف متعددة من الكحول (لم يشرب الرجال كثيراً عندما كنا هناك لكنهم بقوا في الفناء بعـد ان ذهبت السيدات الى القلعـة ، وبقوا يغنـون ويصرخون حتى وقت متـأخـر من الليل) . لم اعد عدد الاطباق الموجودة على الموائد ، فلم يكن مجرد تعدد في نوعية الاكلات بل تعدد في طرق تحضير كل نوع ، ولا اعتقد ان احد في «ورتون» يعرف هذه الاطباق ولا

حتى السيد «جوفري» .

دخلت الى القلعة مع السيدات ، وكانت المركبة مــاتزال هناك ، مجرد هيكل بعيد داكن يحجب النجوم . لم استطع رؤية المركبة من شباك حجرتي . سمعت طرقات على الباب وقلت «ادخل» ! واستدرت لأرى «الوين» .

كانت ماتزال ترتــدي فستانهــا الازرق لكنها قــد خلعت التاج . وقبل ان اقول لها شيئاً قالت هي :

ـ «ويل ، لا استطيع البقاء مدة اطول هنا ، تمكنت من ايجاد فرصة للتحدث اليك» .

كنت اقدر انشغالها بمنصبها الجـديد ، فـلا استطيع التحدث اليها او التنزه معها هذه الفترة . قلت لها :

ـ «كان اختيارهم جيداً . انا سعيد جداً لأنهم اختاروك» .

قالت :

ـ «اريد ان أودعك ياويل»

ـ «لن يطول الامر . بعد بضعة ايام عندما اقدم للتويج» ....

قاطعتني قائلة :

ـ «لن اراك بعد اليوم . الم تعرف ذلك» ؟

ـ «لكني ســأبقى هنا . اخبـرني والدك بـذلك صبـاح هذا اليوم» .

قالت

ـ «انت الذي ستبقى هنا وليس انا . الم يخبرك احد» ؟

«يخبرني بماذا» ؟

ـ «عندما ينتهي الاحتفال ترحل الملكة المختارة لخدمة المركبات الثلاثية القوائم . هذه هي التقاليد» .

قلت بغباء :

ـ «اين تخدمينهم» .

ـ «في مدنهم»

ـ «الى متى»

ـ «قلت لك الى الابد» .

صدمني كلامها ، لكن تعابير وجهها صدمتني اكثر كان نوع من الخضوع والاستسلام . سألتها :

ـ «هل والداك على علم بما سيحدث» ؟

ـ «بالطبع»

لقد حزن والداها كثيراً على ولديهما اللذين رحلا بعيدا قبل بضع سنوات لتعلم الفروسية في قصر آخر . والان ، ابنتهما التي احباها كثيراً ، سترحل الى الابد لخدمة المركبات الثلاثية القوائم . كانا طوال النهار سعيدين متمتعين بالاحتفال لم يبد عليهما اي حزن .

قلت لها :

ـ «يجب ان لا ترحلي ! لا ترحلي» !

ابتسمت لي وهزت راسها كأنها امرأة تصغي الى حديث طفل .

قلت لها :

ـ «تعالي معي ! سنرحل الى مكان لاتوجد فيه مركبات ثلاثية القوائم . لنرحل الان» !

قالت :

ـ «عندما تتوج سوف تفهم كل شيء» .

ـ «انا لن اتوج» !

اخذت نفساً عميقاً وقالت :

ـ سوف تفهم كل شيء . انا الان سعيدة جداً .

تقدمت نحوي امسكت بيديَّ وقبلتني على وجنتي . عادت باتجاه الباب ، وقفت هناك وقالت :

ـ «يجب ان ارحل الآن ، مع السلامة يا ويل تذكرني دائماً . انا ايضاً سوف اتذكرك» .

ورحلت ، سمعت وقع اقدامها في الممر . هرعت الى الباب ، فرأيت الممر فارغاً . ناديتها فلم اسمع سوى صدى صوتي ركضت بضع خطوات ثم توقفت ليس بسبب الناس الموجودين في القصر بل بسبب الويز نفسها . لقد نستني في الحال ، فذهنها مركز على المركبات الثلاثية القوائم . لقد ناداها اسيادها ، وهي الان تذهب اليهم بسعادة .

عدت الى حجرتي ، ابدلت ثيابي وحاولت انت اخلد للنوم . كان الذعر يملؤني . ذعر لما حدث لالويز ، ذعر من المركبات الثلاثية القوائم ، وفوق كل هذا ذعر لما كنت ساقدم

بـه . لايمكن ان ارمي نفسي بشيء يكون الانتحـار افضـل وانظف واطهر منه . ما حصل لم يكن غلطة الويز نفسها لقد تقبلت التتويج كما تقبله عدد لا يحصى من البشر ، غير مدركين لما يحدث ، وليس لديهم بديـل اخر . لكن انـا ادرك ابعاد التتويج . عندما تـذكرت خيبـة الظن على وجـه جان بـول والأحتقار على وجه هنري ، في اخر مرة التقيت بهما ، خجلت من نفسي .

استلقيت في فراشي اتقلب بقلق ، بعدها ابعدت تفكيري عن كل شيء وكرست اهتمامي بوضع خطة للرحيل .

●●●●●

نزلت بسرعة من القصر وكان الجو مظلماً اما خارج القصر فكان الضوء يكفي لارى طـريقي . لاشك في اني سـابتعد مسافة جيدة في غضون ساعتين . ذهبت الى المطبخ ووجدت رجلاً يشخر تحت منضدة ، من الطبيعي انه كان ثملاً جداً بحيث لم يستطع الذهاب الى فراشـه ، فلن يستطع التيقظ بسهولة على صوت وقع اقدامي . لقـد احضرت معي وجه وسادة وملأته بالطعام المتبقي من وليمة الليلـة المنصرمة . وضعت فيه دجاجتين ونصف ديك رومي وقطعـاً من ارغفة الخبز وجبناً ونقانق باردة . بعدها توجهت الى الاسطبل .

كان الاسطبل اخطر من المطبخ ، اذ كان سائسو الخيول نياماً في الجانب الاخر منه ، ولا بد انهم شربـوا الكثير من

الكحـول لكن حركـة وصهيل الخيـول يمكن ان يوقظهم .
الحصان الذي كنت اريده هو الحصان نفسه الـذي كنت امتطيه عندما كنت اتنزه مع الويز ، واسمه «ارستيد» . كان الحصان متوحشاً لكنى كنت قد تمكنت من التعود عليه كذلك هو ، وكنت اتمد على ذلك . وعندما قدته سار خلفي كالحمل بهدوء . ولحسن الحظ كان هناك قش على الارض .الذي قلل من وقـع حدوات الحصـان عـلى الارض وقبـل ان اغـادر الاسطبل اخذت سرجاً من مكانه ـ قرب الباب .

قدت «ارستيد» الى خارج البوابة الكبيرة ووقفت هنـاك لاضع السرج عليه ، صهل لكني لم اهتم ، اذ كنا بعيدين عن القصر . نظرت حولي ، كان القصر خلفي مظلماً ونائماً ، وكان امامي الحقل الذي يقام به المهرجان وكانت الاعلام ترفرف مع كل نسمة من نسمات الفجر . الى اليسار مني ... لقـد نسيت المركبة الثلاثية القوائم ، اولقد افترضت انها غادرت المكان لكنها كانت ما تزال في مكانها مظلمة مثل القصر . هل كانت نائمة ؟ بدت لي هكـذا لكني شعرت بـالخوف وعـدم الارتياح . وبدلاً من ركوب الحصان قدته وسرنا الى طريق آخر الى اسفل التل ، ثم الى المروج حتى نصل الى النهر . كان هـذا الطريق مملـوءاً بالاشجـار التي تحجب عنـا القصر والمركبة الثلاثية القوائم . لم يحدث شيء . ولم أسمع صوت حركة المركبة . اخيراً امتطيت «ارستيد» وانطلق بسرعة .

كنت قد قلت لهنري ولجان بول بأنهما سيرحلان من دون يلاحظ احد غيابهما ، وهذا ما حدث فعلاً .

اما انا فسوف يلاحظون اختفائي بعد قليل وكان من المحتمل ان يرسل الكونت مجموعة للبحث عني لذلك اخذت حصاناً معي ، لابتعد اكثر مسافة ممكنة بيني وبين من سيلاحقني . واذا لم يعثر احد علي بعد مسافة عشرين ميلاً . سأكون بأمان .

ومنحني الحصان فرصة اللحاق بهنري وجان بول . كنت اعرف الطريق الذي سلكاه ، كانا يسبقاني بيوم واحد ، لكنها رحلا سيراً على الاقدام ، هذه المرة لن اعير اهتماماً لكونهما على ودّ اكثرمني فكنت معتمداً على نفسي .

كان الطريق بمحاذاة النهر حتى الوصول الى مكان للعبور الى الضفة الاخرى يبعد ميلاً عن القصر . كنت قد قطعت نصف المسافة عندما سمعت صوت دويّ صوت وقع اقدام ثقيلة على الارض . نظرت خلفي ورأيت منظر المركبة الثلاثية القوائم المرعب وقد غادرت القصر وكانت ترحل بأتجاهي .

لا اتذكر تماماً ما حدث بعد ذلك اولاً بسبب الخوف الذي كنت اعاني منه فلم استطع التفكير بصورة جيدة ، وثانياً بسبب ما حدث بعد ذلك ، الشيء الوحيد الذي اتذكره والذي اكثر رعباً هو اللحظة التي شعرت بها بوجود معدن مرن يلتفت حول خصري ويرفعني من على ظهر «ارستيد» . كنت

اعاني من اضطراب الشعـور وانا ارتفـع في الجو واقـاوم بوهن ، خائفاً مما سيحدث ومما يمكن ان يحدث لو تمكنت من التخلص من المعدن السقوط على الارض من تلك المسـافة البعيدة نظرت الى الاعلى فرأيت اللون الاسود للفتحة الكبيرة كالفم الضخم التي كانت ستبتلعني . وشعرت بخوف عارم لم اشعر به من قبـل وبدأت اصرخ واصرخ .. ثم شعـرت بدخولي المنطقة السوداء المظلمة .

سقطت أشعـة الشمس عـلى عيني لتحـول الظـلام الى ضوء . فتحت عيني ووضعت يدي عليهما في الحال لاتجنب اشعة الشمس . كنت مستلقياً على ظهري على الحشائش . وكانت الشمس بعيدة عن الافق :كان الوقت زهاء السادسة صباحاً . كان الوقت زهاء السادسة صباحاً . وكان الوقت تقريباً الرابعة صباحاً عندما ..
المركبة الثلاثية القوائم .

هزتني رعشة من خوف عندما تذكـرتها . كـان عليّ ان افتش في السماء عنها ، رأيت السماء خالية من المركبـة . زحفت على ركبتي ونهضت ونظرت حولي . رأيت القصر من بعيد وكانت المركبة واقفة بجانب القصر في المكان نفسه الذي رأيتها فيه عندما غادرت القصر .كانت واقفة من دون حركة .
كان «ارستيد» على بعد خمسين ياردة ، سرت نحوه وانا احاول تركيز تفكيري بتذكر ما حدث . هل كان ذلـك مجرد

خيال ؟ او كابوساً حلمت به على اثر سقوطي من الحصان ؟ لكن ذكرى صعودي في الجو بعثت بي رجفة .. لايمكن ان اشك بما حدث ، كان خوفي ويأسي حقيقة لا وهماً اوكابوساً . ماذا حدث بعدها ؟ لقد رفعتني المركبة الثلاثية القوائم . هل يمكن ان اكون ...؟ وضعت يدي على رأسي في الحال وتلمست شعـري وجمجمتي ولم اجد اثـراً للتاج . اذن لم اتـوج . انتابني شعور بالراحة وفجأة شعور بالدوار ، توقفت قليلاً لارتاح .

كان وقت استيقاظ الخدم قد حان وبعد ساعة سيلاحظون اختفائي من القصر ، كنت ما ازال على مسافـة قريبـة من القصر وكـان عـليّ ان لا اضيـع الـوقت . امسكت بعنـان الحصـان وضعت قدمي في الـركاب وصعـدت عـلى ظهـر الحصان . انطلق الى الامام وكان مطواعاً معي . كان علينا أن نعبر النهر ، بعدها نظـرت الى الخلف ووجدت المـركبة ساكنة في مكانها . استمريت في عبور النهر ، وكانت قطرات الماء تتناثر . وهبت نسمة هواء قويـة تحمل اريجـاً ذكرني بالجزيرة التي في النهر ، والتي ذهبنا اليها انا والويز . كنا قد قضينـا وقتاً سعيـداً وجميلاً . بعـدها وصلت الى الضفـة الاخرى من النهر .

●●●●●

كانت الاراضي خالية في البداية ، وبمرور الـوقت بدأت

الاقي بعض الرجال في طريقهم الى مزارعهم ، او الاقيهم في مـزارعهم وهم يعملون ، كـانوا يحيـوني عندمـا يرونني ، وادركت انهم يحيونني لأنهم يعتقدون اني واحد من النبلاء في جولة على الحصان قبل الفطور . اذ كانت ملابسي وسرج حصاني تعطيان ذلك الانطباع . ومع ذلك تجنبت الالتقـاء بالناس . وكنت سعيداً عندما بعدت عن الاراضي الزراعية ووصلت الى اراضٍ عبارة عن مراع للغنم .

كان لدي الوقت الكافي لافكر بالمركبة الثـلاثية القـوائم والحقيقة المذهلة لامساكهم بي ثم اطلاق سراحي من دون تتويج . كان عليّ ان اتخلى عن ذلك التفكير واعده مجرد نزوة من نزوات المركبات كما حـدث عندمـا التفوا حـول سفينة الجـوزاء . كانت تلـك المخلوقـات غير بشريـة فلا يجب ان يعـاملهم المرء معـاملـة البشر . المهم اني اطلق سراحي ، واتمتع بحريتي والاهم من ذلك كان عقلي هو سيدي وسيد مصيري .

توقفت لارتاح واتناول بعض الطعام وارتوي من جدولٍ كان قريباً مني . بعدها واصلت رحيلي . فكرت بالذين تركتهم في القصر ، الكونت والكونتيسة والفرســان الذين تعـرفت اليهم بوساطة الويز . كنت واثقاً انهم لن يجدوني ـ اذ ان «ارستيد» لم يترك اثر لاقدامه على الحشائش القصيرة ، هذا فضلاً عن انهم لن يضيعوا وقت المهرجان ويتبعون اثري .

تذكرت عطفهم وكرمهم وتذكرت عظمة وتعاطف الكونتيسة وضحكة الكونت . تذكرت (الويز) بوضوح كأني كنت اراها واسمعها كما كنت افعل في غضون الاسابيع التي قضيتها هناك . لكن الصورة الاخيرة لها كانت الاقوى والاقسى ، وتذكرت تعابير وجهها عندما اخبرتني انها راحلة لخدمة المركبات الثلاثية القوائم وعندما «قالت انا سعيدة بذلك» وكرد فعل لهذه الذكريات ضربت «ارستيد» الذي انطلق اسرع عبر الارض الخضراء في اسفل التلال .

بدأت التلال تبدو اعلى واعلى كلما قطعت مسافة اكبر . اذا كنت اسير في الطريق الصحيح فكان عليّ ان اجد طريقاً خاصة كما كان موضحاً على الخارطة . ابطأت من مسيرتي ونظرت الى اسفل منحدر كنت اسير بمحاذاته ورأيت الطريق المقصود بين التلال العالية . رأيت شيئاً آخر جذب اهتمامي .

رأيت شيئاً يتحرك على بعد نصف ميل . حدقت النظر فرأيت شخصين يسيران . لم اتحقق من هما لكن لااحد غير هنري وجان بول ممكن ان يتواجد في هذه المنطقة المهجورة .

قبل ان اقترب منهما استدارا بذعر على صوت حدوات الحصان ، توقفت الى جانبهما ونزلت من الحصان وانا اشعر بالفخر من فروسيتي - الى حد الان اشعر بذلك - حدق بي هنري بتعجب . قال جان بول

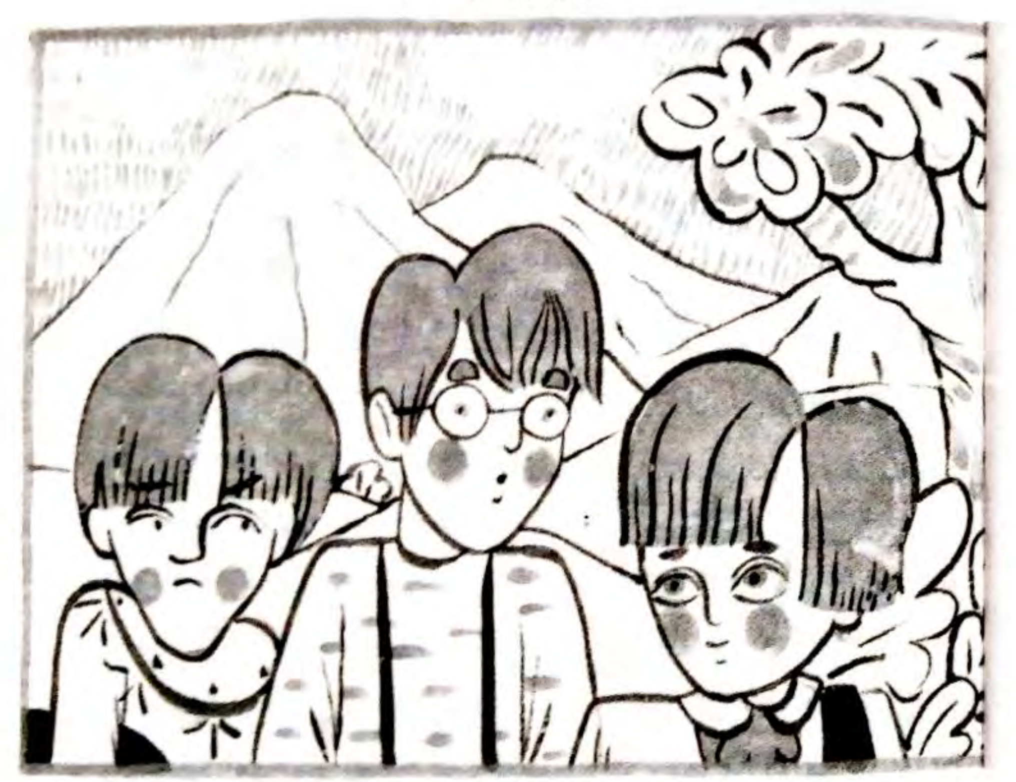
ـ «لقد جئت يا ويل» .

قلت له :

ـ «طبعاً ولماذا ظننت اني لن آتي» ؟

الفصل الثامن

هروب وملاحقة



لم اخبرهما عن الويز وعن السبب الذي غير رأيي في البقاء هناك . كنت خجلاً من نفسي لاعترف اني فكرت بجد في البقاء والسماح لنفسي بقبول التتويج مقابل المميـزات التي كنت سأحصل عليها . وكنت في الوقت نفسه لا اريد التحدث عن

الويز أمام اي احد كان . وفيما بعد ذكر (هنـري) بعض التعليقات الخبيثة التي كـان يقصد بهـا الويـز ، الا اني تجاهلته اذ كان ما يزال مبهوراً بمظهري وفروسيتي .

ما فكرت به عن اسلوب الهروب بأن يرحلا قبلي بيوم ثم اتبعهما اثبتت انه اسلوب جيد منحنا فرصة بارعة للهروب . رويت لهم عن تجربتي مع المركبة الثلاثية القوائم . فكرت ربما يستطيع جان بول ان يلقي ضوءاً عليها ، وفي الاقل ، يستطيع ايجاد نظرية لتفسير ما حدث ، لكنهما لم يتوصلا الى شيء . كان جان بول متشوقاً لأن احاول أن اتذكر اذا قد دخلت داخل المركبة ، وماذا كان في الداخل . الا اني بالطبع لم استطيع ان اتذكر اي شيء .

كان جان بول هو الذي اقترح اطلاق سراح «ارستيد» . كنت قد فكرت اذا سألتقي بهما مرة ثانية فسأكون كريمـاً معهما واسمح لهما بركوب الحصان بالتناوب ، وطبعاً ابقى انا مالك الحصان . لكن جان ـ بول وضحّ ان ثلاثة صبيان وحصان امر يثير الشكوك والتساؤلات ، اما ثلاثة صبيـان يرحلان سيراً على الاقدام ، اوصبي واحد يركب حصاناً هو امر اعتيادي .

قبلت فكرة عدم مقدرتي على الاحتفاظ بالحصان . خلعنا عنه السرج(لأنه كـان موسـوماً بعـلامة القلعـة الحمراء) واخفيناه خلف صخور ، ووضعنا عليه مجموعة اخرى من

الصخور والحجارة كي لا يراه أحد . كان «ارستيد» حصاناً من نوع جيد ، واي انسان سيعثر عليه وهو طليق حر ، لن يفكر في البحث عن صاحبه لاعادته . حررته من العنان ، فهز رأسه فرحاً بالحرية ثم ضربته على مؤخرته صهل وسار بضع خطوات ثم توقف ، ونظر الي . أدركت انه لا يريد مفارقتي ، وحاولت ان أجد مبرراً للاحتفاظ به مدة اطول ، لكنه هزّ رأسه وركض بأتجاه الشمال . ادرت رأسي كي لا اراه وهو يبتعد .

وهكذا انطلقنا مرة اخرى في رحلتنا نحن الثلاثة معا . كنت سعيداً برفقتيهما ولم انطق بشيء حتى عندما علق (هنري) بأني سأواجه صعوبة في التكيف على جو الترحال بعد حياة النعيم التي عشتها في القصر . تدخّل جان ـ بول وأرغم هنري على السكون . وبدا لي ان جان بول قد اخذ على عاتقه مسؤولية قيادتنا . لم اشعر برغبة في تحديه وانتزاع القيادة منه . في ذلك الوقت في الأقل . واجهت صعوبة في مواصلة السير ، فالعضلات التي يحتاجها المرء في السير تختلف عن تلك التي يحتاجها في ركوب الخيل .

ومما لاشك فيه أن لياقتي البدنية قد تغيرت نتيجة للمرض ومدة النقاهة التي تبعته . اطبقت اسناني بقوة وبقيت اسير معهما محاولاً ان لا ادعهما يشعران بتعبي . وكنت سعيداً عندما اقترح جان بول ان نتوقف لنرتاح ولنتناول وجبة طعام .

وفي الليل فمنا على الارض الصلبة تحت النجوم . ووجدت صعوبة في النوم على الارض بدلاً من الفراش الوثير الـذي اعتدت عليه فشعرت بالاسف لحالي . وعلى الـرغم من ذلك اخلدت الى النوم بسرعة لاني لم انم الليلة المنصرمة . وعندما حلّ الصباح ، كـان كل طـرف من اطرافي يئن المـاً ، وكأن شخصاً ما كان يضربني طوال الليل كان اليوم الجديد مشرقاً لكن خال من النسمات الباردة التي كانت تلطف الجو .

تذكرت انه اليوم ما قبل الاخير في المهرجان ، وستقام فيه السباقات ، والويزواقفة هناك ترتدي التاج ، وتوزع الجوائز على الفائزين . وبعد غد سوف ....

وبعد انطلاقنا بمدة قصيرة وصلنا الى الطريق الذي يجب ان نسلكه ، كما هو موضح بالخارطة . لقد سرنا بمحاذاة نهر ينبع من بين التلال وكان مساره يتخلله بعض الشلالات ، بعضهـا كان كبيـراً الى مسافـة اعلى منـه ـ كما مـوضح بالخارطة ـ يوجد نهر آخر يصل الى ذلك النهر فيجـريان بتواز لمسافـة معينة . وصلنـا الى تلك المنطقـة قبل حلـول الظلاًم .

سرنا بمحاذاة النهرين مسافة ثم وصلنا الى منطقة افتراق النهرين اذ يتغير مسار النهر الثاني بأتجاه الشمال ويبقى الاخـر في اتجاهـه نفسه . وصلنـا الى المنطقة المبينـة على الخارطة وكانت اراضيها قاحلة ولا اثـر لوجـود الكثير من

البشر هناك .

بدأ الطعام يشح مرة اخرى ، اذ تناولنا ما قد جلبناه معنا من القصر ، وفي تلك المنطقة التي وصلنا اليها لا نستطيع الحصول فيها على طعام . وجدنا بيتاً ريفياً ، وفي قمة شعورنا بالجوع تمكنا من الوصول الى قن دجاجة ، وكانت جالسة على اربع عشرة بيضة ، كان عشر منها قابلة للاكل وكنا مستعدين لأكل الدجاجة نفسها لو كنا قد تمكنا من الامساك بها .

اخيراً . وصلنا الى اعلى تلٍ ، وعندما نظرنا الى الاسفل رأينا سهلا اخضر يجري فيه نهر كبير وانتصت تلال اخرى على بعد منه . وخلف تلك التلال توجد الجبال البيض ، مكان انتهاء الرحلة . لقد قطعنا مسافة طويلة في رحلتنا وكان امامنا مسافة طويلة اخرى . كان السهل الذي رأيناه مليئاً بالحقول والمزارع والبيوت والقرى الصغيرة وبالطبع يوجد طعام هناك .

كان ايجاد طعام اصعب مما توقعنا . احبطت محاولتنا للاغارة على منزل ما بسبب عواء الكلاب . واحبطت المحاولة الثالثة بسبب المزارع نفسه . اذ تيقظ على اصواتنا وخرج ويركض خلفنا . وجدنا مزرعة بطاطا واستطعنا تهدئة معدنا لكن البطاطا من دون طهو كانت وجبة بسيطة لا تفيد في السفر . تذكرت اصناف الطعام في القصر ثم تذكرت ان ذلك اليوم كان يوم التتويج فكرت بألويز التي لن تحضر لك

الاحتفال لانها كانت قد غـادرت القصر لخدمـة المركبـات الثلاثية القوائم .

واصلنـا الرحيـل وقطعنا مسـافة نصف السهـل (فقد سبحنا عبر النهر ، وتمددنا على ضفة النهر تحت الشمس لتجف ملابسنا) وكنا في طريقنا الى بلاد جـديدة اعـلى من مستوى السهل الذي كنا فيه . رأينا قرية على بعد مسافة قليلة وكانت الاعلام ترفرف من بعيد وتوحي بوجود احتفال . ظننت انه احتفال بيوم التتويج ، لكن جان بول اخبرني انه عـلى الارجح واحـد من عـدة احتفـالات الكنـائس وهـذه الاحتفالات تقام على نحو دائم في تلك البلاد .

وقفناعن بعد نراقب القرية ، ورأينا بيتاً ريفياً كان سكانه يستعـدون للخروج وللمشـاركة في المهـرجان وهم في قمـة زينتهم . قلت وانا اشعر بجوع شديد .

ـ «هل تعتقد ان جميع من في المنزل قد غادروا» ؟

وقفنا نراقبهم حتى غابوا عن البصر ، تقربنا من المنزل وتقدم جان بول نحوه بينما بقينا انا وهنري ، وكان جان بول سيعطي عـذراً ما اذا وجـد احداً في المنـزل امـا اذا كـان خالياً ....

لم يجد أحداً في المنزل ولا حتى الكلب ، ربما قد اخذوه معهم للاحتفال . لم نضطر الى اقتحام المنزل اذ كان احـد شبـابيكه مفتـوحاً فتمكنت من الـدخول منـه وفتح البـاب

للاخرين . لم نضيع وقتنا واتجهنا الى المطبخ تناولنا الطعام وبعد ان انتهينا ملأنا حقائبنا بما نحتاجه في سفرنا .

كان ذلك العمل هو اكبر قرصنة ـ أو سرقة ـ قمنا بها في غضون رحلتنا . كانت أجراس الكنائس ما تزال تدق ، ورأينا موكباً يسير في الشارع الرئيسي للقرية . كان الاطفال يسيرون في المقدمة وهم يـرتدون المـلابس البيض ويتبعهم الكبار . وربما كان المـزارع وزوجته يسـيران في الموكب ، وعنـدما يعودان الى المنزل لن يجدا طعامـاً . وتخيلت والدتي وهي غاضبة ، ووالديَ وهو يعلق بأزدراء على حادثة كهذه . كان الناس في قريتي لا يدعون الغريب يرحل من دون اطعامه .

الفرق الوحيد الذي كان ، هو اننا لم نكن غرباء ، بل كنا خارقي القانون ـ ومن وجهة نظرنا كنا راحلين الى حرب ضد المركبات الثلاثية القـوائم بالـدرجة الاولى ، وضـد كل من يناصرهم بالدرجة الثـانية ، بضمنهم جميـع من عرفت في القصر وكل رجل وقف في طريقنا في جميع البلدان التي سرنا بها .

رأينا بعد مدة مركبة ثلاثية القوائم تأتي بأتجاه القرية . وبدلاً من مواصلة سيرها توقفت بعيداً عن الناس ،.وعـلى مسافة حوالي ميل من مكاننا . بقيت واقفـة هناك من دون حركة كالتي وقفت قرب القصر ، أسرعنا في سيرنا وحاولنـا اخفاء انفسنا عن انظارها على قدر ما نستطيع على الرغم من

انها لم يبد عليها انها كانت مهمته بنـا او تراقبنـا او حتى ترانا . لم تعط اي انطباع على انها تريد ملاحقة احد وبعد ساعة من السير غبنا عن انظارها .

رأينا المركبة الثلاثية القوائم نفسها او اخرى تشبهها في صباح اليوم التالي . وتوقفت مـرة اخرى عـلى مسافـة منا وبقيت واقفة في مكانها . اسرعنا مرة اخرى حتى غبنا عن انظارها . بدأت الغيوم تتجمع في السماء ، وهبت ريح عالية . كنا قد تناولنا جميع ما بحوزتنا من الطعام الذي سرقناه من البيت الريفي . ولم نجد في طريقنا ما يمكن تناوله او سرقته .

وصلنا عند المساء الى حقل مزروع فيه نباتات تتسلق على عود خشبية . وكان يتدلى منها عناقيـد من فواكـه صغيرة الحجم . والمفروض انها تجنى عندما تنضج .وكانت هـذه الفاكهة تعصر والسائل المستخرج منها يصنع منه النبيذ ، وجدت بعض مزارع تحوي على هذا النوع من الفاكهة قرب القصر لكني ادهشت بكمياتها الهائلة في تلك المنطقة ، وكيف انها متروكة تحت الشمس والمطر . كنت جـائعاً جـداً وبي حاجة لفاكهة كبيرة الحجم لكنها كانت قوية ومرة فلم استطع بلعها .

فكرنا في ايجاد مكان لننام فيه بدلاً من النوم في العراء ، اذ ربما يتغير الجو اثناء الليل . وجدنا كوخاً قديمـاً وتذكـرنا تجربتنا السابقة فترددنا في قضاء الليل فيه ، لكن جان بول

اكد لنا ان ذلك الكوخ يستخدم في مواسم جني الثمار فقط ، اذ لا يوجد مسكن في تلك المنطقة . كان الكوخ فارغاً تماماً حتى من دون كرسي او منضدة . كان في السقف ثقوب عديدة لكنه ممكن ان يحمينا من المطر .

بعد ان وجدنا الكوخ بحثنا عن طعام لعلنا نعثر على شيء . وجدنا مجموعة من البصل ، لكنه كان ذابلاً وجافاً وكان بعض منه متعفناً . لابد ان عمال جني الفواكه كانوا قد جلبوه معهم في آخر مرة كانوا هناك . وعلى أية حال كان يفي بالغرض . جلسنا على عتبة باب الكوخ نمضغ البصل وننظر الى السماء واشعة الشمس وهي تغيب خلف التلال . كان الجو هادئاً وساكناً . وعلى الرغم من البصل العفن الجاف ، والارض الصلبة كنت اكثر رضا عن حالي من الايام السابقة بعد رحيلي من القصر . بدأ تفكيري يقل بالامور التي كانت تزعجني .

وكنت على ما يرام مع صديقي ، وفي غضون ايام قليلة سوف نصل الى الجبال البيض .

ذهب هنري الى خلف الكوخ وبعد لحظة نادانا لنذهب اليه . رأينا مركبة ثلاثية القوائم . واقفة بجانب تل ٍ على بعد نصف ميل .

قال هنري :

ـ «أتعتقدون انها المركبة نفسها» ؟

قلت له :

ـ «لم نرها عندما جئنا الى الكوخ . كنت اراقب الطريق» .

قال هنري بأضطراب :

ـ «بالطبع ، جميع المركبات متشابهة» .

قال جان بول .

ـ «يجب ان نرحل ربما تكون مجرد مصادفة ومع ذلك يجب ان نرحل» .

تركنا الكوخ واتجهنا الى قمة تلٍ . وقضينا الليلة في حفرة . لم انم جيداً وما كنت سأستطيع النوم في الكوخ وانا اشعر ان المركبة الثلاثية القوائم تراقبنا .

●●●●●

لم نرَ مركبة ثلاثية القوائم في الصباح . لكن عندما توقفنا عند منتصف النهار ، جاءت المركبة او اخرى غيرها ووقفت قرب تل خلفنا على بعد نصف ميل مثل كل مرة . وبدأت اشعر بالاتجاف .

قال جان بول :

«يجب ان نضللها»

قال هنري

«نعم ولكن كيف» ؟

قال جان بول

ـ «ربما نساعدها بالبقاء في العراء» .

كان امامنا مزارع والى اليسار منها بداية لغـابة تمتـد لمساحة شاسعة لكنها ليست في طريقنا المفروض ان نسـير فيه .

قال جان بول

ـ «لنر اذا استطاعت المركبة ان تمسكنا من بين الاغصان» .

وجدنا في طريقنا مزرعة لفتٍ فملأنا حقائبنا قبل دخولنا الى الغابة ، اذ ادركنا ان لافرصة امامنا في الغابة من الحصول على طعام . دخلنا الغابة وشعرنا بالارتياح للاختياء عن انظار المركبة ، كـان اللون الاخضر لـلاغصان يحجب عنـا رؤية السماء وكأنه سقف . وكنا نرى اجزاءاً من السماء اما اشعة الشمس فلم نرها من شدة كثافة الاوراق والاغصان .

اصبح السفر اكثر صعوبـة . كانت الاشجـار كثيفة في اماكن معينة ، او متشابكة بحيث لم نستطيع من المرور من خلالها ، فكنا نضطر الى الذهاب من مسلك آخر . في البداية لم نتوقع ان نسمع دوي المركبة في الغابة وهي تلاحقنا ومضى الوقت ولم نسمع سوى زقزقة العصافـير واصوات حـركة السناجب . بعد مدة سمعنا صوتاً غريباً وايقاناً ان المركبة تتبعنا مرة اخرى .

وجدنا في طريقنا كوخ حطاب وقررنا ان نقضي الليلة فيه . وجد هنري بعض الاسلاك المعلقة عـلى الجدار في الكـوخ فصنع منها شركاً لنصطاد به ارنباً . اما انا فاحضرت قطعاً

من الاخشاب الجافة واشعلت النار . بعد مدة وقع ارنب في الشرك سلخناه وجهزناه للشواء . كان ما يزال بحوزتنا لفت لكننا كنا في شوق لتناول الارنب .

خرجنا من الغابة في الصباح الباكر . لم نجد اثراً للمركبة الثلاثية القوائم فواصلنا سيرنـا بمعنويـات عاليـة . كانت الاراضي غير زراعية تتخللها بعض المروج التي تضم الابقار والماعز وبعض المزارع الصغيرة لـزراعة البطـاطا ، مـلأنا حقائبنا بالبطاطا وواصلنا سيرنا .

بدأت الاراضي ترتفع وتتحول الى اراض قاحلة . رأينـا امامنا مجموعة من اشجار الصنوبر وكأنها غابة صغيرة سرنا من خلالها ، كان السكون يعم عليها حتى زقزقة العصافير بدت فكأنها بعيدة . جداً وقبل المساء وصلنا الى منطقة كانت اشجـار الصنوبـر قد قطعت والقيت عـلى الارض جاهـزة للسحل . وتمكنا من رؤية التلال العالية والى مسافة بعيدة منها رأينا قمم الجبال البيض الساحرة تومض في السمـاء الزرقاء . واخيراً تمكننا من الاقتراب منها ورؤيتها .

قال هنري بانبهار :

ـ «لابد انها على ارتفاع مئات الاميال» .

قلت له :

«اعتقد ذلك» .

شعرت بألارتياح وانا انظـر الى الجبال الشـامخة التي

تتحـدى المعادن المتـوحشة التي سيطـرت عـلى الارض .
وايقنت ان الرجال الاحرار يختبئون بداخلها ليحيون حياة
الحرية . كنت افكر عندما تحرك جان بول فجأة وقال :

ـ «اصغ» !

سمعت صوت المركبة واستدرت . كانت خلفنا لكن بعيدة
وكانت تمشي على اشجار الصنوبر وتسحقها بقوائمها. قـال
جان بول :

ـ «كنا بعيدين عن الانظار طوال العصر . ونحن ايضاً بعيدين
عن الانظار ومع ذلك تعرف المركبة اننا هنا» .

قلت بتسأم :

ـ «ربما مجرد مصادفة»

قال جان ـ بول

ـ «المصادفة تحدث مرتين ممكن لكن ثلاث مرات ـ أربع ..
هذا مستحيل لأن الشيء نفسه يحدث كل مرة ، انها تتبعنا
كما يتبع الكلب الرائحة» .

قال هنري :

«هذا مستحيل» !

أجابه جان بول :

ـ «عندما لا تستطيع تفسير ما يحدث فالمستحيل هو الحقيقة»

ـ «لكن لماذا تتبعنا ؟ لماذا لا تلتقطنا» ؟

اجابه جان بول :

ـ «وكيف نعرف ما في ذهنها . ربما انها مهمتة بما نفعله ـ وتريد ان تعرف الى اين نذهب»

سأل هنري :

ـ «ماذا سنفعل» ؟

أجابه جان بول :ـ

ـ «يجب ان نفكـر ، الى حد الآن هي تتبعنـا فقط ، لكن لن يحدث ذلك دوماً» .؟

واصلنا سيرنا ، اما المركبة فبقت مكانها من دون حراك . سرنا في صمت يائس . حاولت أن افكر بشيء ما يبعدها عنا ، لكـن لابد ان يتوصل (جان بول) الى حل ينقذنا منها .

لم يتوصل جان ـ بول لفكرة ما . توقفنا لنجد مكاناً ننام فيه ، فلم نجد سوى النوم تحت اشجار الصنوبر الجافـة الدافئة .



الفصل التاسع

«المعركة»

كان الصباح كئيباً منسجماً مع مزاجنا . وكانت أشجار الصنوبر محاطة بالسديم البارد الرمـادي . صحونـا على رجفة برد تسري في اجسامنا . سرنا بين الاشجار محاولين تدفئة انفسنا بالنشـاط والحركـة ، وتناولنـا البطاطـا غير

الناضجة اثناء سيرنا . لم نستطيع رؤية الوادي بوضوح الليلة المصرمة ولم يكن بأستطاعتنا رؤيته ذلك الصباح بسبب السديم ، على الرغم من ضوء الصباح .

لم نرَ المركبة الثلاثية القوائم ولم نسمع شيئاً سوى اصوات وقع اقدامنا على الصنوبر المتناثر على الارض . خرجنا من غابة الصنوبر الى ارض رطبة مغطاة بالحشائش العالية الباردة ، وكانت اقدامنا تغوص فيه . كنا نسير بخطوات أسرع من المعتاد ومع هذا لم نشعر بالدفء . كنت ارتجف وكانت اسناني تصطك من البرد . لم نتحدث كثيراً ولم أجد داعياً لسؤال (جان بول) اذا كان قد فكر بطريقة ما تنقذنا من المركبة . اذ نظرة واحده لوجهه الطويل كفيلة لأن تعطي جواباً بالنفيَ .

وصلنا الى نهاية الوادي واتجهنا الى الغرب . كنا دائماً نسير في الاتجاه الموضح على الخارطة حتى لو وجدنا طريقاً آخر أسهل من الذي موضح عليها . سرنا حتى وصلنا الى نهر لنسير بمحاذاته . مضينا في طريقنا لساعات قليلة وكنت ما ازال اشعر بالبرد ثم الجوع ، ولم تكن هناك اية اشارة او دليل على وجود طعام او سكن .

ارتفع السديم بالتدريج وارتفعت معنوياتنا معه . وارتفعت اكثر عندما رأينا قرص الشمس الذهبي يرسل اشعة الينا . اخبرت نفسي اني كنت مخطئاً عندما فكرت ان

المركبة الثلاثية القوائم لها طريقة سحرية في معرفة مكاننا . ربما كانت طريقتها في ملاحقتنا تعتمد على الحواس ـ النظر والسمع والتي هي اقوى من حواسنا . واذا كان ما أظنه صحيحاً ، فأنها قد ضيعت طريقنا بسبب السديم . أنا لم اكن من المتفائلين لكن ذلك التفكير كان يريحني . سرنا في طريقنا وكنا نسمع زقزقة العصافير فقط اذ كان المكان خالياً من البشر .

سمعنا بعد مدة صوت دوي من خلف احد التلال العالية ثم رأيناها ، كانت نصف مغطاة بالغيوم لكن قوائمها كانت واضحة .

●●●●●

وجدنا بعد الظهر جرجاراً فسحبنا جذوره وجلسنا لنتناوله . كان مذاقه مراً وحاراً . لقد اجتزنا الوادي ووصلنا الى مناطق مرتفعة تحتاج الى مجهود اكثر . كانت المركبة غائبة عن البصر مرة اخرى لكنها ليست غائبة عن الذهن . كنت فاقد الامل ، اذ شعرت اننا نسير في فخ سيطبق علينا بعد قليل . استمرينا في السير حتى الغروب فاقترح جان ـ بول ان نتوقف قليلاً . رميت نفسي على الحشائش وانا اشعر بالجوع والانهاك . بعد ان ارتحنا لبعض الوقت نهض الاثنان ليستأنفا السير ، اما انا فلم اتحرك . كنت مستلقياً على ظهري مغمض العينين ، وراحتي تحت رأسي . ولم

اتحرك حتى بعد ان عادا وهما يتجادلان اذا كان باستطاعة المرء اكل حية ، اذ رأى (هنري) حية وفشل في قتلها . على اية حال اذا تمكنا منها ام لا فكان عليهما ان يأكلاها من دون طهو . بقيت مغمض العينين حتى بعد ان قال هنري بنبرة حادة :

ـ «ما هذا» ؟

ربما قد رأى (هنري) شيئاً أثار اهتمامه ، اجابه (جان بول) بصعوت خافت لم اسمعه . كانا يتهامسان معاً ، وابقيت عيني مغلقتين تجاه الشمس التي كانت ستغيب خلف التلال .

قال جان بول

ـ «ويل».

اجبته

ـ «نعم»

«قميصك ممزق من تحت الابط» .

ـ «أعرف ذلك ، تعلق غصن شجرة بالقميص فمزقه» .

قال بغضب

«ماذا يوجد على ابطك» ؟

فتحت عيني ورأيته واقفاً بجانبي يحدق على ابطي جلست في مكاني وقلت :

ـ «تحت ابطي ؟ عن ماذا تتحدث» ؟

وضعت يدي تحت إبطي فقال :

ـ «ليس هذا بل الاخر»

استعملت يدي اليسرى لاتحسس تحت ابطي امسكت بشيء ملمسه ليس كملمس الجلد . كان ناعماً وصلباً ، أشبه بزر معدني صغير . تحسست باطراف اصابعي وشعرت انه شيء مشبك . ادرت رأسي لأرى ما هو لكني لم استطع رؤية شيء ، بدا لي أنه منغرز في الجلد . نظرت الى صديقيّ فوجدتهما يراقباني . سألتهما .

«ما هذا» ؟

قال جان بول :

ـ «انه معدن يشبه معدن التاج فهو ينغرز بالجلد» .

قلت :

«المركبة ... عندما امسكت بي خارج القصر هل تعتقدان» ..؟

لم تحتاج الى التكملة فوجههما كان يعكس ما كانا يفكران به ، قلت :

ـ «هل تعتقدان اني كنت أرشد المركبة ... اني تحت سيطرتها» ؟

قال هنري :

ـ «انها تتبعنا منذ ايام قليلة ، منذ انضمامك الينا . لايمكننا خلع هذا المعدن عنك ، اليس كذلك ؟ هل لديك تفسير آخر لما

يحدث» ؟

فكرت باللغز الذي يجعل المركبة تجدنا في كل مرة وبالزر المعدني المغروس في جسدي ، لافصل الاثنين عن بعضهما ولا بد ان لهما علاقة بالذي يحدث . في الوقت نفســه كنت اسيطر على ذهني وكنت على يقين من ذلك . لكن كيف اثبته ؟

قال هنري لــ جان بول

ـ «ماذا سنفعل به» ؟

ـ «يجب ان نفكر جيداً قبل القيام بأي شيء» .

ـ «لا وقت لدينا . نحن نعرف انه واحد منهم . لقد كان يرسل للمركبة معلومات من ذهنه . لابد انه ارسل معلومات اخــر تخبرهم ان امره قــد اكتشف ولا بد ان المــركبات ستــأتي الان» :

قال جان بول :

ـ «لقد اخبرنا ويل بنفسه ان مركبــة امسكت به ثم اطلقت سراحه واخبرنا انه فاقد الوعي ولم يتذكر شيئاً . اذا كان ذهنه خادماً للمركبات لما روى لنا ما حدث . لوكان يعرف بالزر الذي تحت ابطه هل كان سيتمدد هكذا ؟ هذا فضلاً عن ان الزر صغير جداً لايشبه التاج وليس قريباً من الدماغ» .

ـ «لكن المركبات تتبعنا من خلاله»

ـ «نعم اعتقد ، ذلك انظر الى البوصلة انها تتجه الى الشمال لأن هناك حديداً . واذا احضرت حديداً هنا فستؤشر ابرة

البوصلة الى ذلك . لقد امسكت به المركبة وهو يهرب من القصر اثناء الليل . كان غير متوج ولم يتوجوه ، ربما كانوا فضوليين لمعرفة ماذا سيفعل ، او اين سيذهب . فوضعوا هذا الشيء عليه ليتمكنوا من حلاحقته» .

كان كلامه معقولاً وكنت متأكداً ان كل ما يقوله هو صحيح . كنت اشعر بوجود الزر تحت ابطي عند كل حركة اقوم بها . لم تكم مؤذية لكني اشعر بوجودها . لماذا لم اشعر بها من قبل ؟ ويبدو ان الفكرة نفسها قد خطرت على ذهن هنري .

فقال لجان بول :

ـ «لابد انه كان يعرف بوجودها» .

ـ «ربما العكس . هل عندكم في قريتكم .... ناس يسلون الاخرين ، الذين معهم حيوانات ... الذين يتمرجحون في الهواء ... وشيء من هذا القبيل» ؟

ـ «تقصد السيرك . رأيت واحداً مرة» .

ـ «جاء سيرك لقريتي مرة كان بضمنهم رجل فعل اشياء غريبة . كان يجبر الناس على النوم واطاعة اوامره . وكانوا يفعلون ما يأمرهم به ، وكانوا يبدون مضحكين في بعض الاحيان . كانت اوامره تنفذ مدة طويلة .

قلت لهما :

ـ «انا اشعر بالزر الان»

قال جان بول

ـ «لأننا نبهناك على ذلك وربما هذا يبطل المفعول» .

قال هنري بنفاذ الصبر :

«شيء سوف يغير من الحقيقة تستطيع المركبة تتبعنا بوساطة الزر ويمكنها ان تلتقطنا كما فعلت معه» .

ادركت وجهة نظره فقلت :

ـ «أمامنا شيء واحد يمكننا القيام به»

سألني جان بول :

ـ «وماهو» ؟

ـ «اذا افترقنا يمكنني ان ارحل في طريق مختلف عن طريقكم ، ستتبعني المركبة وستكونان في امان»

ـ «طريق مختلف الى الجبال البيض ؟ لكنك سترشدها الى هناك . وهذا ما ترغب به المركبة» .

ـ «لن اذهب الى هناك ، سأعود ادراجي» .

ـ «وتمسك بك مرة اخرى وتتوجك» ؟

تذكرت اللحظة التي امسكتني بها المركبة من على ظهر ارستيد . كانت الارض تصغر كلما ارتفعت . في تلك اللحظة من التفكير تمنيت ان لون وجهي لم يشحب بسبب الخوف من الذكريات .

قلت لهما :

ـ «يجب عليها ان تمسك بي اولاً ،

قال جان بول» :

- «سوف تفعل ذلك ، ليس امامك فرصة للهروب منها» .

- «يمكنني ان ابعدها عنكما في الاقل» .

ساد صمت ، كانت فكرتي هي الطريقة الوحيدة كل المشكلة ، وكانا مرغمين على الموافقة . لاحاجة لهما لقول اي شيء . وقفت واستدرت لابدأ السير . قال جان بول

- «انتظر» !

- «ولِمَ» ؟

- «قلت يجب ان نفكر . وانا كنت افكر . هذا الشيء الذي تحت ابطك صغير جداً مثبت بداخل جلدك لكن ليس عميقاً

صمت جان بول ، فقال هنري :

- «ثم ماذا» ؟

نظر الي جان بول وقال :

- «انها بعيدة عن الشريان لكن سوف تؤذيك اذا قلعتها من ابطك»

- «هل تعتقد انك تستطيع فعل ذلك» ؟

- «يمكنني ان احاول»

خلعت قميصي وقلت :

- «لا تضيع الوقت هيا» !

●●●●●

لم يكن (جان بول) على عجلة من امره . جعلني استلقي

على الارض وارفع ذراعي . تفحص الزر والجلد الذي حوله . كنت اريده ان يستغل الوقت ولا يبدده سدى . اخيراً قال : ـ «نعم سوف تؤلمك سأقلعه بالسرعة الممكنة لكنك تحتاج شيئاً لتعضه هنري .. عليك ان تمسك بذراعه كي لايسجبها عندما يشعر بالالم» .

وضعت قطعة جلدية من الحقيبة لأعضها . كان بحوزة جان بول سكين كان قد حصل عليها من المدينة التاريخية ، وكان قد شحذها جيداً . أمسك هنري بذراعي كما امره جان بول . كتن مستلقياً على جهتي اليسرى ووجهي بأتجاه الارض . ثم شعرت بثقل (جان بول) وهو يجلس عليّ . وشعرت بأطراف اصابعه تتحسس تحت ابطي . عضضت القطعة الجلدية بقوة وقام (جان بول) بمحاولة بتر الزر . اهتز جسدي كله كان الماً لايحتمل .

حاول (جان بول) مرة ثانية وثالثة . حاولت تركيز اهتمامي على القطعة الجلدية التي كانت في فمي اذ بدأت تتمزق من شدة . العض تعرقت كثيراً وشعرت بقطرات العرق تنصب على جبيني ووجهي . أردت الصراخ ليتوقف عن البتر ، ليدعني ارتاح من الالم قليلاً . كنت اوشك أن ارمي القطعة الجلدية من فمي عندما حاول مرة اخرى ، عضضت القطعة الجلدية ومعها جزءاً من لساني . تذوقت الطعم الدافيء المالح للدم ،وشعرت بالدموع تتجمع في مقلتي .سمعت صوته وهو

يقول لهنري «دعه الآن» ! واطلق هنري ذراعي . كان الالم لايطاق لكنه اقل من السابق . نهض هنري وحاولت النهوض . لكن ذراعي وابطي كانا يؤلماني .

قال جان بول .

«لقد كانت مثبتة على سطح الجلد فقط ، كما توقعت . انظر» !

نهضت والقيت نظرة على ما بيده . كان شيئاً لونه رمادياً وطوله زهاء نصف انج ، وكان سميكاً من الوسط .

كان شيئاً صلباً ويعطي الانطباع على انه مئات من الاسلاك موثوقة معاً . وكان متصل به جزء من لحمي الذي قطعة جان بول مع الزر» .

قال جان بول :

ـ «انه شيء غريب اتمنى دراسه . خسارة ان ارميه هنا» .

كانت نظرته نظرة فضولية . وهنري الذي كان يتفحصها ايضاً بدت على وجهه دلائل الفضول والاثارة . وعندما نظرت مرة اخرى الى قطعة اللحم شعرت بالدوار والغثيان .

قلت لجان ـ بول :

ـ «ارمها بعيداً ومن الافضل ان نرحل وكلما ابتعدنا عن هنا كان افضل لنا» .

نظر اليها لآخر مرة ثم رماها على الحشائش ، وقال لي :

ـ «هل تؤلمك ذراعك» ؟

ـ «لايهم ذلك . المهم ان نبتعد اكثر ونسرع اكثر ذلك سوف

ينسيني الالم» .

نزفت كثيراً ، كنت ربطت قميصي تحت ابطي ، لكن بعدها وضعت القميص كلــه تحت ابطي ليمتص الــدم . وكــان اقتراحي بأن السير سوف ينسيني الالم غير ناجح . اذ بدأ ابطي يؤلمني اكثر . لكن المهم اني تخلصت من الزر ، وكل خطوة آخذهما تبعدني عن المركبة اكثر» .

كنا مستمرين بالصعود على ارض صلبة . كانت اشعة الشمس تأتي من جهة اليمين وكنت ارى ظلي الى جانبي . كان الصمت سائداً بيننا ، من جهتي كنت منشغلاً بالالم الذي اعانيه بصمت . ولو كنت في مزاج افضــل لشعرت بهــدوء وجمال تللك الامسية ، لم نسمع صوتاً الا صوت ...

توقفنا لنسمع . شعرت ان قلبي توقف ثم اهتاج الالم في ابطي والخوف في قلبي . كان الصوت يأتي من خلفنا خافتاً ، وبدأ يعلو بالتدريج . وكان الصوت نفسه الذي سمعته عندما كنت على متن سفينة «الجوزراء» .

●●●●●

رأينا المركبة الثلاثية القوائم بعد دقائق ، وهي تتــوجه صوبنا . كانت على بعد ميلين لكنها تتقدم بسرعــة اكثر من سرعتها المعتادة .

قال «هنري» الحشائش ..

لم يكن محتاجاً لقول المزيد اذ بدأنا نحن الثلاثة نركض

باتجاه الحشائش لنختبيء بينها . كانت الحشائش هي اقرب شيء الينا وكانت عالية تصل الى اكتافنا . رمينا انفسنا بينها قلت لهما :

«لايمكن ان تكون هذه المركبة تتبعنا بسببي اليس كذلك» ؟

قال جان بول :

- «لابد ان الزر قد ارسل اشارة اليها عندما كنت استأصله . لذلك جاءت خلفك لتصطادك هذه المرة» .

سأله هنري :

«هل تعتقد انها رأت مكاننا» ؟

- «لا اعرف لقد كانت بعيدة عنا والضوء ليس قوياً» .

كانت الشمس قد بدأت تغرب . وبدأت السماء تتحول الى الازرق القاتم . لكن السماء لم تكن مظلمة تماماً ، حاولت ان اواسي نفسي بالتفكير بأن المركبة الثلاثية القوائم قد رأتني قرب القصر لأنها كانت على مقربة مني ولأن السماء لم تكن مظلمة جداً . بدأ صوت المركبة يزداد قرباً . لابد انها عبرت المكان الذي رمى به جان بول الزر المعدني وهذا يعني انها ..

شعرت بالارض تهتز من حولي هزات متقطعة . رأيت احدى قوائم المركبة عن قريب ورأيت هيكل المركبة الشبيه بنصف كرة الداكن اللون كأنه فوقي . وتمنيت ان استطيع حفر الارض لادخل في داخلها . توقف صوت الدوي في تلك

اللحظة بعدها سمعت صوتاً مختلفاً كأنه صفير شيئاً ما وهو يضرب بالسياط بسرعة ، نظرت بخوف فرأيت بعض الحشائش والشجيرات مقلوعة من الارض ومرمية على جنب . قال جان بول :

- «لقد تمكنت منا فهي تعرف اننا هنا يمكنها ان تقلع جميه الحشائش والشجيرات حتى ترانا»

قال هنري :

- «ربما تقتلنا ، اذا ضربك هذا الشيء ....»

قلت:

«اذا جعلتها تراني» ...

قال جان بول :

- «تعرف اننا هنا معاً».

قال هنري :

- «يمكننا ان نركض باتجاهات مختلفة ، وينجو واحد منا في الاقل» .

رأيت شجيرات اخرى ترتفع في الجو . فكرت ان المرء لايمكن ان يعتاد على الخوف .. قال جان بول :

- «يمكننا محاربتها» .

قالها بهدوء جنوني ،جعلني أشعر برغبة في الصراخ .

ثم سأله هنري :

- «بماذا نحاربها ؟ بقبظات أيدينا ؟

«بالبيض المعدني» .

فتح حقيبته وبدأ يفتش بداخلها ، في حين كانت المركبة تقلع الشجيرات والحشائش باستمرار . وبدأت تقترب نحونا ثم عاد جان بول يقول :

ـ «ربما استخدم اجدادنا هذه البيض في الدفاع ضد المركبات الثلاثية القوائم . وربما لهذا السبب وجدناها تحت الارض في الشيء الذي يشبه القطار .. ربما كانوا يخرجون من هناك لمحاربة المركبات» .

قلت له :

ـ «لكنهم خسروا المعركة ! كيف تعتقد» ..

اخرج البيض من الحقيبة وقال :

ـ «ماذا يوجد بعد» ؟

ردّ عليه هنري :

ـ «لقد رميت البيض . واجهت صعوبة في حملها» .

قال جان بول :

ـ «بحوزتي أربع» .

سلّم واحدة لي وواحدة لهنري . وعاد يقول اذا سحبنا الحلقة ، عدّا حتى العدد ثلاثة ثم قفا وأرميا البيض على القائمة التي اقرب الينا . إن أن جسد المركبة بعيد عنا . رأيت احدى قوائم المركبة قريبة جداً مني ثم قال جان بول : «الان» !

سحب الحلقة من بيضته، كذلك هنري اما انـا فكنت قد امسكت بالبيضة في اليد اليسرى وكان عليّ ان احولها لليد اليمنى . عندما فعلت ذلك شعرت بألم تحت ابطي فسقطت من يدي . انحنيت لالتقطها فقال جان بول «الان ! وقفا ، اما انا فتناولت البيضة بسرعة متجاهلاً المي بسبب الحركة ، ثم وقفت وسحبت الحلقة في الوقت الذي رميا فيه البيضتين . كان اقرب قائمة على بعد ثـلاثين يـاردة وكانت اول بيضـة رماها .

جان بول على بعد عشر ياردات من الهدف . أمـا ضربة هنري فكانت قريبة من الهدف كذلك ضربة جان بول الثانية (اذا كان بحوزته بيضتان) . اما ضربة هنري او ضربة جان بول الثانية اصابت القـائم المعدني . انفجـرت في الحال . سمعنا اصوات انفجار وتناثر التراب في الهواء .

لكن على الرغم من ذلك بقت المركبة كما كانت عليه ، واقفة من دون حراك . رأيت ذراعاً معدنية تهبط بأتجاهنا انطلقنا نعدوا . اما انا فشعرت اني واقف مكاني والذراع يلتف حول خصري .

ضربت الـذراع بيدي اليسرى لكنهـا كانت صلبـة وقد احاطت بي بقوة وبدأت ترفعني كما ارفع انا جرذاً من ذيله . الفرق هو ان الجرذ ممكن ان يعض أما انا فلم استطع فعل شيء . ارتفعت اعلى واعلى وبدأت الارض تبتعد اكثر . كذلك

هنري وجان بول حتى اصبح حجمها كحجم نملتين تسيران على الارض . نظرت الى الاعلى ورأيت الفتحة السوداء في هيكل المركبة . تذكرت اني كنت ما ازال امسك بالبيضة المعدنية في يدي اليمنى .

كم مضى من الوقت عندما سحبت الحلقة ؟ نسيت ان اعد الثواني بسبب خوفي واضطرابي . بدأت الذراع تدخلني داخل المركة . كانت على بعد حوالي اربعين قدماً ... خمسة وثلاثين ثلاثين . مددت ذراعي وتجاهلت الالم الذي تحت ابطي ، ورميت البيضة بكل قوتي ودخلت تماماً في الفتحة الكبيرة السوداء . اعتقدت في بادىء الامر اني لم اهدف جيداً لكنها اصطدمت بحافة الفتحة ثم دخلت استمرت الذراع في كبي الى الداخل وكنت على مسافة عشرين قدماً ... خمسة عشر .. عشرة .

على الرغم من اني كنت قريباً منها الا ان صوت الانفجار لم يكن عالياً جداً ربما لأنه حدث داخل الهيكل المعدني . اعتقدت اني فشلت في محاولتي الاخيرة لكن بعد ثوان شعرت بارتخاء الذراع ثم هويت الى الارض .

تمسكت بالذراع المعدنية التي كنت قبل ثوان قليلة احاول الافلات منها . كنت على ارتفاع ثلاث شجرات بلوط ، واذا سقطت على الارض فأن عظامي ستتهشم . بقيت ممسكاً بالذراع التي هوت معي . اغلقت عيني وعندما كنت ممسكاً

بالذراع احسست بخضـة قويـة ثم توقفت . فتحت عيني فوجدت نفسي على بعد بضعة انجات من الارض . وما كان عليّ الا ان اترك الذراع واهبط على الارض .

جاء (هنري) و(جان بول) باتجاهي . نظرنا الى الاعـلى بذعر . كانت المركبة واقفة هناك من دون ان يحدث اي ضرر للهيكل . لكننا كنـا نعرف انهـا انتهت ، تدمـرت ، وفقدت الحياة .

الفصل العاشر

الجبال البيض



قال جان بول

ـ «لااعرف اذا كانت قد ارسلت اشارة للمركبات الاخريات قبل وفاتها لكن من الافضل لنا ان لانبق هنا»

وافقناه الرأي من كل قلبينا . من جانبي كنت اعلم انها

ماتت ومع هذا خفت من مجرد التفكير انها ممكن ان تسقط فوقنا وتسحقنا تحت ثقلها الهائل . فكنت اتهلف على مغادرة المكان .

قال جان بول :

ـ «اذا جاءت مركبات اخر فانها سوف تفتش المنطقة وكلما ابتعدنا عن هنا كان الامر افضل»

انطلقنا نعدو الى اعلى التل حتى بـدأنا نلهث من التعب وبدأت قلوبنا تخفق بسرعة ، وبدأت عضلات الساقين تئن وتعذب من التعب ومع هذا استمرينـا في الصعود . كـانت ذراعي تؤلمني وبعد فترة اصبحت آلامها اقل من آلام ساقي وعضلاتي . سقطت على الارض وكـان شعوراً مـريحاً ان اتمدد على الارض لاهثاً . ساعدني الاخرون على النهوض وكنت غاضباً وممتناً في الوقت نفسه .

وصلنا الى قمة التل بعد نصف ساعة . توقف (جان بول) وتوقفنا معه ، لا اعتقد اني كنت سأستطيع الركض اكثر من ذلك ، اذ سقطت على الارض وهـذه المرة لا استطيـع احد ايقافي على قدمي . كنت الهث بعمق وشعرت بألم وضيق في صدري وبالتدريج بدأ الضيق يقل حتى بدأت اتنفس بحالة طبيعية .

نظرت الى اسفل التل ،كان الظلام مخيماً على المكان لكني استطعت رؤية المركبة واقفة هنـاك . هل من المعقـول اني

قتلتها ؟ بدأت اقدر العمل الجبار الذي قمت به . اذ دمرت يدي اليمنى تلك المركبة الهائلة القوية التي تحكم وتسيطر على الارض .

قال جان بول :

«انظر»

كان في نبرة صوته ذعر فقلت له :

«أين» ؟

قال مؤشراً الى الغرب :

«الى الغرب»

رأيت شيئاً يتحرك من بعيد . كان المنظر البغيض عينه الذي يسير عالياً ، كانت مركبة ثلاثية القوائم تتبعها مركبتان . كانت بعيدة جداً لكنها تتقدم باتجاهنا .

●●●●●

ركضنا مرة اخرى الى اسفل التل من الجهة الثانية وابتعدنا عن انظارها ، وكان ذلك عزاءاً بسيطاً لنا اذ كنا ندرك انها في السهل المجاور . تمنيت ان تبقى المركبات مع المركبة الميتة بعض الوقت لكني كنت اشك في ذلك ، فالانتقام من القاتل ستكون ردة الفعل الاولى . استمرينا في الركض حتى اصبحت السماء داكنة اللون وحلّ الليل تماماً . اصبحت الرؤية صعبة هذا اذا لم يكن للمركبات عيون قطط . لم نرَ في السهل الذي نزلنا اليه اي مكان للاختباء ولا حتى

شجيرة صغيرة لنقف تحتها . كانت الارض مغطاة بالحشيش والصخور . جلسنا على الصخور لنرتاح كانت النجوم مضاءة في السماء ، اما القمر فلم يكن موجوداً لكنه كان سيظهر بعد ساعة او ساعتين .

رأينا ضوءاً يشع في السماء . كان ضوءاً متحركاً .. عدة اضواء ؟ جذبت انتباه جان بول لذلك فقال:

ـ «نعم لقد رأيته» :

ـ «المركبات الثلاثية القوائم» ؟

ـ «ومن يكون غيرها» ؟

بدأ الضوء يلوح في السماء كأنه ذراع . سلط الضوء على الارض ،لم اكن ارى ما خلفه لكني تخيلت شكل المركبة ،لقد جاءت مركبة الى مكاننا وكان الضوء يشع من هيكلها نصف الدائري لتتمكن من رؤية طريقها .

جاءت المركبات واحدة تلو الاخرى وبين كل واحدة مسافة مئة ياردة ، وكان الضوء ينير الطريق امام المركبات وما بينها . كانت تسير أبطأ من سرعتها المعتادة لكن حتى لو ركضنا فأنها تسير اسرع منا بكثير ولا تتعب على ما اظن . كانت المركبات تسير بصمت عدا اصوات ارتطام قوائمهن . على الارض كان ذلك الصمت مرعباً ومخيفاً اكثر من صوت دوي المركبة المتوفاة .

ركضنا مسافة طويلة ثم توقفنا ، ثم ركضنا مرة اخرى ،

وكنا نـ كض باتجاه الغرب وكان الضوء يلاحقنا وهو يتحرك بجميع الاتجاهات . وقفنا لنرتاح لأن المـركبات قـد تفرقن اتجهت واحدة الى الشمال والثانية الى الشرق امـا الثالثـة فاتجهت الينا .

اقترح جان بول ان المركبـات قد تفـرقن للبحث عنا في مختلف الاتجاهات ، وهذا يعني ان المركبة لا تتبع الرائحة كما تفعل الكلاب . لكنها تتبع الاثار التي على الارض . كان على مقربة منا جدول ضيق نزلنا وبدأنا نسير فيه . كان عرضه بضعة اقدام ، ولحسن طالعنا كان مستوى المـاء فيه ليس عالياً . تذكرت حذائي الجلدي الذي صنع خصيصاً لي في القصر . وسوف يتلف بسبب الماء ، ثم حـولت تفكيري الى الامور المهمة .

توقفنا قليلاً لنرتاح . كان مستوى الماء في النهر يصل الى الركبة ، ولم يكن السير في الجدول أمراً متعباً .

قلت لهما :

ـ «لا يمكننا ان نبقى هكذا . ستصل المركبة الينا بعد زهاء ربع ساعة» .

قال هنري :

«وماذا يمكننا ان نفعل» ؟

ـ «يوجد في هذه المنطقة مركبة واحدة . لقد غطى ضوؤها كل السهل وبعض الجوانب . لذلك لن تفتشه مرة ثـانية . اذا

تمكنا من قطع السهل وتسلق التل يمكننا ان تفقد اثرنا» .
قال هنري :
ـ «ويمكن ان تتبع اثار اقدامنا وتلحقنا» .
ـ «يجب ان نجازف . ليس لدينا فرصة اخرى . ماذا تعتقد يا جان بول» ؟
قال :
ـ «انا .. انا اعتقد ان الاوان قد فات . انظر امامك» !
رأيت ضوءاً ينير السهل . نظرنا اليه بصمت ويأس ثم ظهر ضوء آخر .. ثم اضواء اخرى . لم تعد المشكلة مشكلة مركبة واحدة بل عدة مركبات تأتي من خلفنا ومن حولنا .
اقترح هنري :
ـ «هل نتفرق ؟ اعتقد ان لدينا املاً ضعيفاً اذا تفرقنا افضل مما نبقى معاً» .
قلت له :
«كلا لقد انتهينا» .
قال هنري :
ـ «اعتقد اني سأركض . هذا افضل مما يجدوننا جميعاً معاً».
قال جان بول :
«انتظر» !
ـ «ولم الانتظار ؟ سوف يفوت الاوان بعد دقائق» .

ـ «انظر الى تلك الصخرة» !

كنا ننظر بيسر اذ ان اضواء المركبات قد انارت السهل واصبح بأمكاننا الرؤية بوضوح لا بأس به . رأينا على بعد عشرين ياردة سلسلة من الصخور العالية في الجدول .

قال جان بول :

ـ «ممكن ان نختبيء خلفها او بينها.

كنت اشك في ذلك حتى لو استطعنا الاختباء بينها او الاتكاء عليها فأن اضواء المركبات ستعثر علينا . لكن لم يكن عندي اقتراح إفضل . خاض (جان بول) امامنا في الجدول ومضينا خلفه . كان الجدول يسير من جانبي الصخور . كان ارتفاع الصخور ثلاثين قدماً ، وكانت قممها مسطحة وملساء ، اما جوانبها فكانت منحدرة وبذلك لم تكن مكاناً مناسباً للاختفاء اما الجزء الاسفل ..

يبدو ان الجدول كان اقوى في السابق فقوة تدفق الماء فيه سببت تآكلاً في الجزء الاسفل من الصخور انحنينا لنتلمسها بايدينا . كان التاكل على ارتفاع قدمين وعلى عمق قدمين ايضا . رأينا شعاعي ضوء على الجهة الشمالية من السهل وواحد منه كان يقترب من المكان الذي كنا نقف فيه ، فلم نجد سبباً للتأخير . دسسنا انفسنا في عمق الصخرة ، اولاً (جان بول) بعده (هنري) ومن ثم انا . كانت يدي اليمنى في الداخل اما اليسرى فكانت طليقة خارج الصخرة . حاولت دفع نفسي

للـداخل اكثـر لكن ابطي كان يؤلمني ، رفعت رأسي قليـلاً فأرتطم بالصخرة .

همس جان بول :

ـ «لاتتحدثا يجب ان نبقى هنا بهدوء مدة ساعة»

رأيت المنظر خارج الصخرة ، كانت اضواء المركبات تنير المكان وبدأت المركبات تقترب اكثر واكثر ، وبدأت اسمع وقع اقدامهن على الارض وهن يقترب . احدى المركبات سلطت ضوءها على الجدول وسقط الضوء امامي . تحول الليل الى نهار ، ورأيت امامي حصاة صغيرة ينبع فيها نبـات صغير اخضر اللون وبعض الديـدان متجمدة من دون حـراك .. وكانت الارض تهتز من تحتي بسبب سير المركبات . دفعت نفسي للداخل اكثر وفكرت كم ستكون الساعة طويلة وانا على تلك الحال .

●●●●●

حقاً ، كانت ساعة طويلة جداً . كانت الاضواء تلعب طوال الليل في السهل وعلى التلال تتقدم وتتراجع ، تعبر ، وتعود ، واخيراً بزغ الفجر ، لكن محاولة الصيد لم تتـوقف ، فقد كانت المركبات تأتي وتذهب مرة بعد اخرى ولابد ان عددها كان درينة .

لم ترنا مركبة ، وكلما مضى وقت ايقنا اكثر انها لن ترانا حتى عندما بزغ الفجر بدا لنا ان مكاننا غير مرئي للمركبات .

لم نستطع مغادرة المكان وكنا نجلس في الـداخل ، والتعب وعدم الراحة تقلقنا ، هذا فضلاً عن الضجر والجوع . اما بالنسبة لي فعلاوة على كل تلك المنغصات كانت ذراعي تؤلمني بشدة . وبدأت اشعر بالدموع تتساقط من مقلتي .

عند انتصاف النهار بدأ تكثف التفتيش يقـل ،. ومرت فترات بين خمس الى عشر دقائق لم تمر بها مركبات ، فكنا نخرج من المخبأ لنتمطى ، وكانت دائماً تنتهي الاستراحة عندما نرى مركبة قادمة . لم نستطع الابتعاد عن المكان فلم نجد قربنا اي مكان آخر للاختباء .

هبط الظلام مرة اخـرى وعادت اضـواء المركبـات مرة اخرى . لم تكن اعداداً كثيرة من المركبـات تفتش في الليلة الثانية . لكن لم يمض وقت طويل من دون ان تمـر واحدة وترسل ضياءها على السهل او قمم التلال . غفوت عدة مرات لاوقات قليلة وكنت اشعر بالصخرة فوق رأسي بـاردة جداً حتى بدأ رأسي يؤلمني ، وبدأت ذراعي تئن . كنت واثقاً ان المركبات ستقلع عن التفتيش في صباح اليوم التالي . ترقبت ضوء النهار بشغف . واخيراً بدأ لون السماء يتغير .. خرجنا من المخبأ نرتجف ونتفحص المكان من حولنا . اذ لم نر اي ضياء منذ اكثر من نصف ساعة وبعد خمس دقائق هرعنا الى المخبأ عندما رأينا مركبة قادمة ..

بقينا في الملجأ حتى العصر .. كان وضعي بائساً جداً ،

كنت جائعاً ومتألماً ولم افكر بشيء سوى التحمل والصبر ، اما الآخران فلم يكونا في حال افضل مني . وعند المساء طالت مدة غياب المركبات وبدا ان التفتيش قد توقف ، ومع هذا لم نغادر بعيداً . خرجنا من المخبأ وبقينا ساعتين جالسين على ضفة الجدول متأهبين للعودة الى المخبأ .

عندما قررنا مواصلة رحلتنا كان الليل قد حل . كنا تعبين من الجوع . سرنا مسافة ميلين ثم انهارينا على الارض وقضينا الليلة في العراء ، من دون امل في ايجاد مكان للاختباء اذا جاءت مركبة ثلاثية القوائم . بزغت الشمس وملأت اشعتها السهل الخالي من المركبات .

●●●●●

كانت الايام التي تلت بعد ذلك شاقة جداً ، خاصة بالنسبة لي ، لقد تقيح الجرح تحت ابطي . واضطر (جان بول) الى قطع اجزاء اللحم التالفة . صرخت هذه المرة فلم استطع كبح الامي . بعدها وضع (جان بول) على الجرح بعض الاعشاب الشافية التي وجدها في الطريق ، وربط تحت ابطي بقطعة من قميصي . قال (هنري) لابد ان الجرح قد كان مؤلماً جداً ، وانه كان سيصرخ اعلى مني لو كان مكاني . كنت سعيداً بعطفه تجاهي اكثر مما كنت اتوقع .

كنا جياعاً طوال الوقت ، ونرتجف من البرد ، اذ كانت ملابسنا خفيفة لاتناسب مع الجو الذي تغير . اذ بدأت

الغيوم تتجمع في السماء وبدأنا نشعر بالنسمات الباردة التي كانت تهب من الجنوب . وصلنا الى ارض عاليـة التي كان يجب ان ترى الجبال البيض منها . لكننا لم نر اثراً لهـا . مجـرد افق رمادي . ومـرتّ عليّ لحظـات شعرت ان القمم البيض التي رأيناها من غابة الصنوبر كانت مجرد سراب .

وصلنا الى سهل ورأينا فيه بحيرة كبيرة لانهاية لها ، كانت البحيرة الكبيرة التي رأيتها على الخارطة .

كانت الاراضي خصبة وغنية . استطعنا الحصـول على الطعام وبدأت معنوياتنا ترتفع وحتى الجرح المتقيح تحت ابطي بدأ يتشافى . اذ كان مفعول الاعشاب قوياً .

وفي صباح أحد الايام بعد ان قضينا الليلة بنوم هادىء ومريح على التبن في حظيرة ماشية استيقظنا لنجد السماء صافية زرقاء . رأينا تلالاً امامنا باتجاه الجنوب . وخلفها رأينا منظراً رائعاً قريباً . كانت قمم الجبال البيض .

●●●●●

بالطبع لم تكن قريبة كما تبدو . بدأنا السير بمعنويـات عالية في سهلٍ ثم مرتفعات . سرنا مدة ساعة وكنا انا وهنري نمزح فيما بيننا ونعلّق على (جـان بول) وقـدره والبخار ثم استوقفنا . ظننت ان المزاح قد أزعجه لكنني شعرت كما شعر هو بأن الارض تهتز من تحت اقدامنا .

رأيت مركبتين قادمتين بسرعة ، واحدة من جهة اليسار

من الجنوب الشرقي وواحدة من خلفنا . كانتا تتوجهان صوبنا . نظرت حولي بيأس اذ كانت الارض مسطحة خضراء لاتوجد فيها شجرة ولا صخرة ولا حتى حفرة . واقرب بيت ريفي كان على بعد مسافة نصف ميل .

قال هنري :

ـ «هل نركض بأتجاه المنزل» ؟

قال جان بول :

ـ «الى اين ؟ لافائدة من ذلك» .

كان صوته يائساً .. اذ وجد (جان بول) ان الامر لا امل منه ، اذن حقاً لا امل فيه ، وبعد دقائق سوف يقبضون علينا . نظرت الى قمم الجبال البيض ، قطعنا كل تلك المسافة وتحملنا كل الصعاب وسنخسر الجولة ، والهدف امامنا . اهتزت الارض بقوة تحت اقدامنا . كانت على بعد مئة ياردة .. خمسين . كانت المركبات تسير واحدة جنب الاخرى ، وكانت الاذرع تعلو وتهبط في الجو ، مرت من فوق رؤوسنا وكنت بأنتظار ذراع لتمسك بي . اطبقت على الارض احدى القوائم على بعد مسافة قريبة منا ، ثم اجتازتنا المركبات . قال (جان بول) بتساؤل :

ـ «لم ترنا . ربما كانت منشغلة فيما بينها ؟

لكنها مكائن ... فكيف تنشغل واحدة بأخرى ؟ انها احجية أود معرفة جواب لها» .

لكل الذي شعرت به في تلـك اللحظة كـان ضعفاً بسبب الراحة .

●●●●●

كانت رحلة طويلة وخطرة وصعبة كما قال (اوزيمانديـاس) وحياة شاقة في نهاية الرحلة ، وكان محقاً في ذلك ايضاً . لم نحيا حياة ترف . ولم نرغب بذلك حتى لو توفرت الفرصة لنا . فـأذهاننـا واجسادنـا يجب ان تهيأ للمهمـات التي كانت امامنا .

وجدت في الجبال البيض عجائب اخرى والمسكن الذي نعيش فيه هو اعظمها . نحن لا تعيش فقط بين الجبال البيض بل في داخل واحد منها . وكمـا بنى القدمـاء القطار تحت الارض ، هنا ايضاً يوجد نفق على ارتفاع ميل وطول ستـة اميال لكن لماذا شيدوه ؟ ولأي غرض ؟ هذا ما لانعـرفه . والان توجد انفاق اخرى وهي تمتد اعمق الى قلب الجبل . حتى عندما وصلنا الى هذا المكان في الصيف . كان الثلـج والصقيع يغطي الفتحة الرئيسية التي تؤدي الى النفق . وفي داخل الجبل كان الهواء معتدلاً تحمينا منـه طبقات عـالية وسميكة من الصخور .

هناك فتحات في الحبل تمكننا من الرؤية . اذهب في بعض الاحيان الى واحدة من الفتحات لأطل على الوادي الاخضر البعيد ، يوجد في الوادي بعض القرى والمزارع الصغـيرة

والماشية تبدو الحياة هناك دافئة وسهلة مقارنة بالحياة الصعبة بين الصخور والثلج . لكني لا أحد سكان الوادي .
ليس صحيحاً تماماً ان اقول ان الحياة التي نحياها خالية من الترف . فلدينا الحرية والأمل . نحن نعيش بين رجال يمتلكون عقولهم . ولم يتقبلوا السيطرة من قبل المركبات الثلاثية القوائم . على الرغم من انهم صبروا كثيراً ، هم الان يستعدون لشن الحرب ضد العدو .
نحن جديدون في المجموعة فلا نتوقع ان نعرف كل شيء عن المشروع والخطة ، وما سيكون دورنا فيه . المهم ان لنا دوراً وهذا شيء مؤكد . والشيء المؤكد الاخر هو اننا سوف ندمر المركبات الثلاثية القوائم ونحرر الناس ، ونتمتع بخيرات ونعيم الارض .



سلسلة اروع المغامرات
٤
العودة
الى كهف الزمن
ادورد باكارد
ترجمة: عزة حسين كبه



سلسلة أروع المغامرات
٥

الحاسبة الالكترونية




سلسلة
البراعم
أصدقاء المزرعة

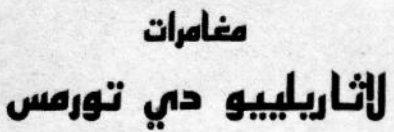
الطائر الازرق

تأليف: موريس ميترلنك

ترجمة: عبد الخالق ثروت



مكتبتنا





الكاتب مجهول

اقتباس: ماريا ايزابيل مولينا

ترجمة : مروان ابراهيم

[7]



دار الحرية للطباعة - بغداد

دار ثقافة الاطفال
قسم النشر

السعر ٦٥٠ فلساً

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٨٢٤) لسنة ١٩٨٩

دار الحرية للطباعة ـ بغداد